



القِلَادَةُ الذِّهْبِيَّةُ

شرح

المنظومة القلبية



نظمها وشرحها

د. صالح عبد الكريم البلوشي

مدير برنامج الدراسات الإسلامية

واللغة العربية بجامعة جميرا

فني دبي

مَكْتَبَةُ قُرْآنِ جِلَاتِ دُورِ الدَّارِ



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
السنة النبوية الفردوس

www.moswarat.com

القلادة الذهبية

شرح

المنظومة القلبية

نَظْمُهَا وَشَرَحُهَا

د. صالح عبد الكريم البلوشي

مدير برنامج الدراسات الإسلامية واللغة العربية
بجامعة جميرا في دبي

كل الحقوق
محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

رقم إذن الطباعة والتداول

MC-02-01-6483186

تاريخ إذن الطباعة

26-9-2020

التصنيف العمري

E

الرقم الدولي

978-9948-25-209-2

التواصل مع المؤلف

mnhj77@hotmail.com

الإمارات العربية المتحدة

الشارقة

البريد الإلكتروني: droosaldar@gmail.com

التواصل: 00971503667077

تويتر : Droosaldar

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَكْتَبَةُ مَسْجِدِكَ دُورِ الدَّارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مقدمة الشارح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله علّام الغيوب، أحمده وأشكره على نِعَمِهِ ما تعاقب الشروق والغروب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، حُثْنَا على سلامة القلوب، وحذّرنا من المعاصي والذنوب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دلّنا على خير الدروب، وعلى من تبعه في الرخاء والخطوب.

أما بعد:

فإن المتأمل في كتاب الله يجد الكثير من الآيات التي تتحدث عن القلوب وأعمالها، وأسباب سلامتها وأنواعها، كما يجد المئات من الأحاديث الصحيحة حول أعمال القلوب، ووقايتها من المفسدات والذنوب، وهكذا جاء عن السلف في هذا الباب رَحْمٌ من الآثار، والمواقف والأخبار، واحتفت المدونات الحديثية بالأبواب القلبية^(١)، وظهرت المصنّفات الزهدية^(٢)؛

(١) ومن ذلك على سبيل المثال باب الصبر في الأذى، وباب الرجاء مع الخوف في صحيح البخاري، وباب الحُصْص على التوبة والفرح به، وباب فضل دوام الذكر والفكر في صحيح مسلم، وباب في الحياء في سنن أبي داود، وباب ما جاء في الزهادة في الدنيا في سنن الترمذي، وباب ثواب من صبر واحتسب في سنن النسائي، وباب التوكل واليقين في سنن ابن ماجه.

(٢) مثل كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك، وكتاب الزهد لأحمد بن حنبل، وكتاب الزهد لهناد السري، وغيرها من الكتب المستقلة في هذا الباب، إلى جانب الكتب التي وسمت بالزهد ضمن مدونات الحديث.



ليؤكد كل ذلك ضرورة العناية بالقلوب، وما يحقق لها النجاة والسلامة يوم الكروب.

ومع وجود العديد من المصنّفات قديمًا وحديثًا إلا أن الكثير منها لا يخلو من الهنات، ومع كثرة الشهوات والشبهات، وحاجة النفوس للتذكير بوظائف القلوب والعظات، وسهولة ضبط المعرفة من خلال المنظومات، عن لي أن أسهم بجهد المقل في تقريب ما في هذا العلم من العبارات، وتوضيح بعض الاصطلاحات؛ من خلال هذا النظم المختصر الموسوم بـ«المنظومة القلبية»، مع شرحه الموسوم بـ«القلادة الذهبية».

وجاءت فكرة المنظومة في شهر رمضان المنصرم حينما كنتُ أعلّق على رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي في أبواب السلوك والأعمال القلبية، فاستعنت بالله، وبدأت حينها بنظم بيت في كل يوم على وجه التريث والروية، حتى تكاملت المنظومة - بفضل الله وحده - بعد شهرين من الكتابة والمراجعة الدورية.

وجاءت المنظومة على بحر الرجز، مع اختيار سلس الكلمات، وإن وجدت في مواطن منها بعض الزحافات، فذلك لطبيعة الموضوع والضرورات، وحرصت فيها على اختيار العبارات المختصرة، وتسليط الضوء على أهم مباحث العلم المقررة، من الماهية والأهمية، وتفاضل وتلازمها أعمال القلوب وعلاقتها بالجوارح، وأقسام القلوب وأعمالها ومفسداتها.

والقصد من النظم حصول التصور العام لعلم القلوب وأبرز مسائله، وقد جاء الشرح متوسطًا مع الحرص على تكثيف النصوص والآثار في كل موضوع، والنقل عن المحققين في مسائل هذا العلم، لا سيما من بساين



طبيب القلوب ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ. وفي شرح أعمال القلوب اقتصرْتُ على التعريف، وأبرز الثمرات، وسبل الوصول للمنزلة، وفي بيان المفسدات بَيَّنْتُ التعريف، ثم المضارَّ لهذا المفسد على القلب.

هذا والشكرُ لله العليِّ الكريم على توفيقه وامتنانه، وجوده وإحسانه؛ حيث يسَّرَ إتمامَ النظم وشرحه، وأسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يجعله لوجهه خالصاً، ولسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موافقاً، وعباده نافعاً.

ثم امثالاً لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ»^(١)؛ أتوجَّه بالشكر لإخواني المشايخ الفضلاء الذين راجعوا معي مادةَ النظم، وأثروهُ بزوائد وتصويبات، وفوائد وتوجيهات، فجزاهم الله خيرَ الجزاء وأوفاه.

وفي الختام أسأل الله أن يرزقنا العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ، والإخلاصَ في القول والعمل، والسلامةَ من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

وَعَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

كتبه

د. صالح عبد الكريم البلوشي

يوم السبت ١٣/١١/١٤٤١ هـ

الموافق ٤/٧/٢٠٢٠ م



(١) أخرجه الترمذي في سنته، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، برقم (١٩٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤١٦).

نص المنظومة

المنظومة القلبية

المنظومة

يا سائراً لعالم الغيوب وآملاً سعادة القلوب
خذ نهجاً من منبع الفرقان ومثلاً من سنة العدنان
صنّه أخي من تيه كلّ محدثه لا تأخذن عن الهوى أو حادثه
فالحق واضح صريح أبلج وما عداه باطل ولجلج

ماهية القلب واهميته

وخلّص القلب من التغير وحوّل الخير والفوائد
وهو محلّ للرقي والظفر نهج الصلاح فيه مكمّن الدرر
وهو أجل ما إليه ينصرف جهد المريد للفلاح والشرف

تفاضل أعمال القلوب وتلازمها وعلاقتها بأعمال الجوارح

إيماننا فالنطق باللسان عقد الفؤاد عمل الأركان
فالقلب أصل: والجوارح تبع من اعتنى بالأصل والفرع ارتفع
تفاضل الأعمال أيضاً حاصل تلازم لا يخذعك الصائل

أقسام القلوب

ثمّ القلوب فسلیم من شبهة ومن ذنوب عند ذي عقل نبهة
وعكسه الميّت لا يقاد بينهما العليل قد يقاد

اعمال القلوب

أعمالها كثيرةٌ دقيقةٌ
إفراذك الحقَّ بحُسنِ مقْصِدِ
كذاك ميلُ القلبِ معَ تعظيمِ
كذا الرّجاءُ: ثقةٌ بالجوْدِ
والخوفُ قلٌّ تألُّمُ الأَوَابِ
توكُّلٌ أخذُكُ بالأسبابِ
ثمَّ التَّقَى فعلُكُ ما أُمِرْتَ
والورعُ التَّركُ لما فيه الضَّرَرُ
وإن تُردَ معرفةَ الخشوعِ
ثم عتابُ القلبِ فالمحاسبةُ
واستحضِرْ أنَّ الرَّقِيبَ يعلمُ
تَفَكَّرُ: تأمُّلُ الدلائلِ
ثمَّ سُكُونُ النَّفْسِ إنْ حَانَ الْقَضَا
وحبسُها أيضًا إذا بُليتَا
وغيرُها؛ حميَّةُ للشرعِ
وكلُّ ما قَبَّحَ الشرعُ فَذَرِ
قُلْ: اليقينُ قوَّةُ الإيمانِ
والتوبةُ الإقْلَاعُ عن ذنوبِ
والعزمُ ألا للذنوبِ يَرْجِعَا
إنابةٌ قلٌّ سرعةُ الرجوعِ
وخذ صفاتها على الحقيقة
يُعرفُ بالإخلاصِ والتَّجَرُّدِ
فذلُّكمُ محبَّةُ الكريمِ
من الإلهِ خالقِ الوجودِ
مستحضراً مرارةَ العقابِ
معتمداً فيه على الوَهَابِ
كذاك أنْ تتركَ ما نُهيّا
خوفاً وإخباتاً لخالقِ البشرِ
فالذلُّ لله مع الخضوعِ
خوفاً من العذابِ والمعاتبةِ
ما يُعلنُ العبدُ وما يُكْتَمُ
والشكرُ قلٌّ ذكْرُكُ للفضائلِ
وحبسُها عن جزعِ ذاك الرضا
كفاً ومنعاً فاصطبرْ جُزَيْتَا
ثم الحياءُ باعْثُ للمرْعِي
والعرفُ إنْ وافقَ شَرْعاً يُعْتَبَرُ
تواضعٌ وسَكَنُ الجنانِ
ونَدَمٌ على اقترافِ حَوْبِ
كذاك إنْ كانتَ حقوقاً أَرَجَعَا
إلى الهدى والخيرِ بالخضوعِ

مفسدات القلوب

والميلُ مفسدٌ لها فلتذكرِ	للمشركِ أو لشهوةٍ ومنكرِ
وبدعةٍ، وغفلةٍ، نفاقِ	والحسدِ، الكبرِ، كذا الشقاقِ
ثم الفضولِ، أو هوى المُحَقَّرَةِ	والعشقِ، والوسوسةِ المُصَغَّرَةِ
والعجبِ والرياءِ ثم الترفِ	إن مسَّت القلبَ أتاهُ التلفُ
فاحرصِ على لزومه دربَ الهدى	وداوه كي لا يميل للردى

الخاتمة

حافظِ على جواهرِ الفؤادِ	زادكَ يومَ الحشرِ والمعادِ
ثم استعنْ عليه بالدعاءِ	وردِّدْ يا مُجزِلَ العطاءِ
ياسابغِ الخيراتِ للعبيدِ	ثبتِ قلوبنا على التوحيدِ
تمت هنا الأرجوزةُ البهيَّةُ	عنوانها «المنظومةُ القلبيةُ»
بحمدِ ربِّنا العليِّ نُظِمَتْ	وبالصلاةِ للأمينِ خُتِمَتْ



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

شرح المنظومة

مقدمة المنظومة

أَلِفْ لَامِ مِيمٌ

يا سائراً لعالم الغيوب وآملاً سعادة القلوب

بدأ الناظم نظمه بحسن استهلال، إشارة لموضوع النظم المتعلق بالقلوب، حيث جاء الشطر الأول للإشارة إلى السير إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومخاطبة السائر إلى عالم الغيوب. وعلم القلوب من الباطن الذي لا يطلع عليه إلا ربنا العالم بالخفيات والغيوب، والمؤمن في هذه الدار في رحلة وهجرة عظيمة. قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَائِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١)، وقال في وصيته لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»^(٢). وهذه الهجرة تحتاج إلى زاد وقوة علمية وعمليّة، لأنَّ الطريق طويلٌ محفوفٌ بالعقبات، والصعاب والمنعطفات، ومن أعظم الزاد أعمال القلوب التي هي أصل الهجرة إلى ربِّ البريات.

وفي الشطر الثاني تحفيزٌ وتشجيع لمن أراد سعادة القلوب وراحتها

- (١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٣٧٧)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم (٤١٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٠٠).
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، برقم (٦٤١٦).



وسكنتها، فإنه سيجد ذلك في معرفة منازل القلوب والعمل بها، التي تؤخذ وتُضبط من الوحيين، كما سيأتي في البيت الثاني.

وقد أشار ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إِلَى هذه المعاني في كلام نفيس حيث قال: «وكذلك السائر إلى رَبِّهِ إِذَا أَبْصَرَ الطَّرِيقَ وَأَعْلَمَهَا، وَأَبْصَرَ الْمَعَايِرَ وَالْوَهَادَ والطَّرِيقَ النَّاكِبَةَ عَنْهَا؛ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ شَطْرُ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ، وَبَقِيَ عَلَيْهِ الشَّطْرُ الْآخَرُ، وَهُوَ أَنْ يَضَعَ عَصَاهُ عَلَى عَاتِقِهِ، وَيُشَمِّرَ مَسَافِرًا فِي الطَّرِيقِ قَاطِعًا مَنَازِلَهَا مَنَزَلَةً بَعْدَ مَنَزَلَةٍ»^(١).



(١) ينظر: طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية، (ص ١٨٧).

خُذْ نَهْجَهُ مِنْ مَنِيعِ الْفِرْقَانِ وَمِثْلَهُ مِنْ سَنَةِ الْعَدْنَانِ

يذكر الناظم في هذا البيت ضابطاً مهماً حول مصدر علم منازل القلوب وتفصيلها؛ فهي تُؤخَذ وتُضَبَط بما جاء في كتاب الله وفي صحيح سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَنْ بَنَى الْكَلَامَ فِي الْعِلْمِ: الْأُصُولَ وَالْفُرُوعَ؛ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّابِقِينَ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَنَى الْإِرَادَةَ وَالْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ وَالسَّمَاعَ الْمُتَعَلِّقَ بِأُصُولِ الْأَعْمَالِ وَفُرُوعِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ وَالْهُدَى الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ، وَهَذِهِ طَرِيقُ أُمَّةِ الْهُدَى»^(١). هذا إلى جانب مراعاة فهم السلف الصالح، والعناية بآثارهم حول نصوص أعمال القلوب وأحوالها، ففهمهم ليس كفهم غيرهم، فقد عاصروا التنزيل، وفقهوا التأويل، وعرفوا القرائن الْمُحْتَفَّةَ، مع ضميمة قوة اللغة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَعْرِفَةُ مَا أَرَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَفَاطِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَنْ يَعْرِفُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ الَّتِي بِهَا نَزَلَ، وَمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَانِي تِلْكَ الْأَفَاطِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا خَاطَبَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَرَفَهُمْ مَا أَرَادَ بِتِلْكَ الْأَفَاطِ، وَكَانَتْ مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَكْمَلَ مِنْ حِفْظِهِمْ لِحُرُوفِهِ، وَقَدْ بَلَّغُوا تِلْكَ الْمَعَانِي إِلَى التَّابِعِينَ أَعْظَمَ مِمَّا بَلَّغُوا

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٢ / ص ٢٧٨).



حُرُوفُهُ»^(١). وهذه هي حقيقة العلم الذي تَحْصُلُ به السلامة في مثل هذا البابِ الدقيقِ المرتبِطِ بالاعتقاد، فَمَنْ جعل الكتابَ والسنةَ على فَهْمِ سلفِ الأمةِ نبراسًا له في هذا الطريقِ فقد هُدي ووُفق.



(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٢ / ص ٤).

صُنِّهُ أَخِي مِنْ تِيهِ كُلُّ مُحَدَّثَةٍ لَا تَأْخُذَنَّ عَنِ الْهَوَىٰ أَوْ حَادِثَةٍ

أشار الناظم في هذا البيت إلى ضابط آخر في علم منازل القلوب، ألا وهو صيانتُه من المحدثات، فلا يُؤخذ هذا العلم - الذي مصدره الوحي - من الهوى والحادثات، والأذواق والمنامات. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما أُحْدِثَ من العلوم، الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك، بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطرٌ عظيمٌ، وقد أنكره أعيانُ الأئمة كالإمام أحمد وغيره»^(١)، فالفطن هو الذي يأخذ العلوم من مظانِّها الصحيحة، ويتجنب المصادر الرديئة. قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَخْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»^(٢).

وفي البيت الأول إشارة إلى مآل المحدثات؛ فهي تورث الحيرة والتَّيَّةَ والضَّياع، ويتأكَّد في هذا الباب الحذر من المصطلحات والمنازل والمقامات المحدثَّة التي تنطوي على مخالفات.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتزكية النفوس أصعبُ من علاج الأبدان وأشدُّ، فمن زكَّى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يَجِئ بها الرسل، فهو كالمرِيض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسلُ

(١) ينظر: بيان فضل علم السلف على علم الخلف، لابن رجب، (ص ١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردَّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).



أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان^(١). وأهل الصواب وَسَطٌ في هذا الباب بين أهل الإفراط والتفريط، بين مَنْ أهمل أعمال القلوب ونفاها، وبين مَنْ ابتدع وأحدث فيها، وكلٌّ من الإفراط والتفريط تضييعٌ لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، واستجابةٌ لنزغات الشيطان. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «دينُ الله وَسَطٌ بين الغالي فيه، والجافي عنه، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما أَمَرَ عباده بأمر إلا اعترض الشيطان فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظَفَرَ، إما لإفراط فيه، وإما تفريط فيه»^(٢).



(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣١٥).

(٢) ينظر: الوصية الكبرى، لابن تيمية، (ص ٥٦).

فالحقُّ واضحٌ صريحٌ أبلجٌ وما عداهُ باطلٌ ولجلجٌ

خَتَمَ الناظم المقدمة بالإشارة إلى مثل شهير يذكره أهل العلم، وهو قولهم: «الحقُّ أبلجٌ والباطلُ لجلجٌ»^(١)، ومعناه أنَّ الحقَّ واضحٌ مشرقٌ، والباطلُ ملتبسٌ ومختلطٌ، فالحقُّ في هذا العلم واضحٌ ناصعٌ أبلجٌ كالصباح، له مناراتٌ وحججٌ بينات؛ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارُهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»^(٢)، بخلاف الباطلِ وطُرُقِهِ، فهي مُظْلِمَةٌ مُخْتَلِطَةٌ يَحَارُّ أَهْلُهَا، لَأَنَّهَا لَمْ تَرْتَبِطْ بِالْأَدْلَةِ وَالْيَقِينِ، وَلَمْ تَقُمْ عَلَى الْبَرَاهِينِ، بَلْ عَلَى الظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

والخلاصة لمن أراد السلامة

لزومُ الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، فهو الطريق الواضح المستنير، وما عداهُ تَكْلُفٌ وَتَنْطَعٌ وَشَرٌّ مُسْتَطِيرٌ.



(١) ينظر: مجمع الأمثال، للميداني، (م ١ / ص ٣٢١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، برقم (٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٦٩).

ماهية القلب وأهميته

وَخَلَّصَ الْقَلْبَ مِنَ التَّغْيِيرِ عَضُوُّ مُشَاعِرٍ كَمَا الصَّنُوبِرِ

شرع الناظم بعد المقدمة في الإشارة إلى تعريف القلب في اللغة والاصطلاح، فجاء الشطر الأول كوصية بالحفاظ على القلب من التقلب والتغير، وهي من المقاصد العظيمة في باب القلوب، ولذلك أكثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سؤالَ رَبِّهِ ثباتَ القلب، «كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(١)، والقصدُ من هذه الوصية الإشارةُ إلى المعنى اللغوي للقلب الذي يدور بين أمرين: وهما خالصُ الشيء، وردُّ الشيء من جهةٍ إلى أخرى. قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «القاف واللام أصلان صحيحان: أحدهما يدلُّ على خالص شيءٍ وشريفه، والآخرُ على ردِّ شيءٍ من جهةٍ إلى جهةٍ»^(٢). وقال ابنُ منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلبُ: تحويلُ الشيء عن وجهه»^(٣). ويُطلق على القلب أيضاً: الصدر^(٤)، والفؤاد، والرُّوع^(٥)، ويُجمع على قلوب.

- (١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٩١).
- (٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٨٥٧)، (ق ل ب).
- (٣) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١١ / ص ٢٦٩)، (ق ل ب).
- (٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ١ / ص ١٨٩).
- (٥) ينظر: الصحاح، للجوهري، (م ١ / ص ٢٠٤)، (ق ل ب)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ٩٣٥).



فتسمية القلب لغةً ترجعُ إلى أنَّه أخلصُ وأرفعُ وأشرفُ شيءٍ في البدن، وخالص كل شيء قلبه، كما أنه كثيرُ التقلبِ في الخواطر والواردات، والنيات والإرادات، كما تتقلبُ الريشةُ في الفلاة مع شدة الرياح، وفي الحديث: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ ثَقَلِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيْشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ، يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ»^(١)، وقد أشار بعضهم إلى هذا المعنى بقوله:

ما سُمِّيَ القلبُ إِلَّا مِنْ ثَقَلِهِ فاحذَرُ على القلبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ^(٢)

والشطر الثاني من البيت إشارةٌ إلى المعنى الاصطلاحي الذي يدور أيضا على معنيين: أحدهما الجانبُ الحسيُّ، وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودعُ في الجانب الأيسر من الصدر، وهو المضغة التي تضخ الدم في الجسم، والثاني الجانب المعنوي المرتبط بالعواطف والمشاعر والإدراك. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لفظُ القلبِ قد يرادُ به المضغةُ الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن، وقد يراد بالقلب باطنُ الإنسان مطلقاً؛ فإنَّ قلبَ الشيء باطنه»^(٣). وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ويطلقُ القلبُ على معنيين: أحدهما: أمرٌ حسيٌّ، وهو العضو اللحميُّ الصنوبريُّ الشكل، المودعُ في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويفٌ، وفي التجويف دمٌ أسود، وهو منبعُ الروح.

والثاني: أمرٌ معنويٌّ: وهو لطيفةٌ ربانيةٌ رحمانيةٌ روحانيةٌ، لها بهذا العضو

(١) أخرجه أحمد في مسنده، أول مسند الكوفيين رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ، حديث أبي موسى الأشعري رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ، برقم (١٩٩٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٣٦٥).

(٢) ينظر: أحكام القرآن، للقرطبي، (م ١ / ص ١٨٧).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٩ / ص ٣٠٣).



تعلّق واختصاص، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان»^(١).

وقد نجد الدلالة على المعاني الاصطلاحية في حديث النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ
الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٢).



(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)،
ومسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩).



وَحَلَّهُ بِالْخَيْرِ وَالْفَوَائِدِ لَتُبْصَرَ النِّجَاةُ فِي الشَّدَائِدِ
وَهُوَ مَحَلٌّ لِلرُّقْيِ وَالظَّفَرِ نَهْجُ الصَّلَاحِ فِيهِ مَكْمَنُ الدُّرَرِ
وَهُوَ أَجَلٌ مَا إِلَيْهِ يَنْصَرِفُ جَهْدُ الْمُرِيدِ لِلْفَلَاحِ وَالشَّرَفِ

ولما كانت «معرفة القلب وصفاته أصل الدين، وأساس طريق السالكين»^(١) شرع الناظم بعد بيان ماهية القلب وحقيقته في تجلية أهمية القلب وضرورة العناية به، وعمارته بالأعمال القلبية، وما ينتج عنه من ثمار عظيمة في الدنيا والآخرة، فجاءت التوصية في البيت الأول بتزيين القلب بأعمال الخير وصالح الفوائد التي تعود على المرء بأعظم العوائد في أوقات الشدائد، فالقلب العامر بالإيمان والعبوديات سبب لنجاة العبد من كرب يوم القيامة؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، كما أنه يُنَجِّي من شدائد الدنيا، وهذا ظاهر في قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة، وكيف نجّاهم الله من الكرب لما دَعَوْا رَبَّهُمْ بخالص أعمالهم، وكانت عبارتهم جميعاً: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ»^(٢).

وجاء في الشطر الأول من البيت الثاني بيانُ العنصر الثاني في أهمية القلوب؛ وهو أنَّ القلوب هي التي يَحْصُلُ بها التفاوت بين الناس والراقي في الدرجات، ولَرُبَّمَا وقف الرجل بجانب صاحبه في صف الصلاة وبينهما من التفاوت

(١) ينظر: منهاج القاصدين، لابن قدامة، (ص ١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، برقم (٢٢٧٢).



العظيم لما قام في القلوب. قال حسان بن عطية رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الرّجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وَإِنَّ ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض، وذلك أَنَّ أحدهما مقبِلٌ على الله عَزَّوَجَلَّ، والآخرُ ساهٍ غافلٌ»^(١)، بل قد يرتقي ويدرك درجاتِ العامل وهو في بيته قاعدٌ؛ لما قام في قلبه واحتفَّ به من الأعذار، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاذِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»^(٢). ومن ذلك قولُ أبي بكر بن عياش رَحِمَهُ اللهُ: «مَا سَبَقَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَفِي قَلْبِهِ»^(٣). ومن هذا المعنى قولُ أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ومثقال ذرَّةٍ من برٍّ صاحبٍ تقوىٍ ويقينٍ أعظمُ وأفضلُ وأرجحُ من أمثالِ الجبالِ من عبادةِ المغترِّين»^(٤).

ومن معالم الأهمية في الشطر نفسه أَنَّ العناية بالقلب سببٌ للظفر والفوز في الدارين، ومن أعظم الظفر الفوز بالجنة، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣]. ومن الظفر الفوز بجنة الدنيا! قال بعضُ السلف: «مساكينُ أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيَّبَ ما فيها»، قالوا: وما أطيَّبَ ما فيها؟ قال: «محبَّةُ الله، والأنس به، والشوق إلى لقاءه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه». وقال ابن تيمية

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب، برقم (٤٤٢٣).

(٣) ينظر: غاية النهاية، لابن الجزري، (م ١ / ص ٣٢٧)، ولا أصل له مرفوعاً، كما بين العراقي في الإحياء، (م ١ / ص ٣٠)، والألباني في السلسلة الضعيفة، (م ٢ / ص ٣٧٨).

(٤) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ١ / ص ٦٣٠).



رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ فِي الدُّنْيَا جَنَّةً مَنْ لَمْ يَدْخُلْهَا. لَمْ يَدْخُلْ جَنَّةَ الْآخِرَةِ»^(١). وقال أيضًا: «فالقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا يلتذ ولا يسرُّ، ولا يطيب ولا يسكن، ولا يطمئن؛ إلا بعبادة ربِّه، وحبِّه، والإنابة إليه»^(٢)، وقريبٌ منه قولٌ تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففي القلب شعْتُ لا يلُمُّه إلا الإقبالُ على الله، وفيه وحشةٌ لا يُزيلُها إلا الأنسُ بالله، وفيه حزنٌ لا يُذهبُه إلا السرورُ بمعرفة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٣). والمقصود بجَنَّةِ الدُّنْيَا عبودياتُ القلوب، فهي لذةُ الدُّنْيَا وسرورها ونعيمُها.

وفي الشطر الثاني من هذا البيت إشارةٌ إلى أنَّ حقيقةَ الصلاحِ المورثُ للدُّرَرِ هو صلاحُ القلوب، فَمَنْ وَطَّنَ قلبه على نهجِ الصلاحِ فليُبَشِّرْ، ولذلك كان محلُّ نظرِ الربِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٤).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «داوِ قلبك؛ فإنَّ حاجةَ الله إلى عبادِهِ صلاحُ قلوبهم»^(٥) قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني: أنَّ مرادهُ منهم ومطلوبه: صلاحُ قلوبهم، فلا صلاحَ للقلوب حتى تستقرَّ فيها معرفةُ الله وعظمته ومحبته، وخشيته ومهابته ورجاؤه، والتوكلُ عليه، وتمتليَّ من ذلك؛ وهذا هو حقيقة التوحيد»^(٦).

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٥٢).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ١٩٤).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٦٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، برقم (٢٥٦٤).

(٥) ينظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم، (م ٢ / ص ١٥٤).

(٦) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٤٧).



وفي البيت الثالث حثُّ وتأكيْدُ للعناية بالقلب، وبيانُ أنَّ أجلَّ ما يعتني به طالبُ الشرف والرفعة والفلاح في الدنيا والآخرة هو العناية بالقلب وأعماله، فرعاية المرء لقلبه سببُ الفلاح، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن تزكية النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]. وأعظم صور التزكية العناية بأعمال القلوب، وفي صدد ذكر أعمال المفليحين من سورة (المؤمنون) جاء أول عمل لهم من العبادات القلبية، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، ثم إنَّ حقيقة الهجرة إلى الله هجرة القلوب، قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: «مفاوز الدنيا تُقَطَّع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقَطَّع بالقلوب»^(١).

وَمَنْ تَأَمَّلَ عَظِيمَ عَنَايَةِ السَّلَفِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ أَدْرَكَ هَذَا الْمَلْحَظَ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ مِنْ صَمِيمِ الْإِيمَانِ، وَالْفَطْنِ هُوَ الَّذِي يَتَعَاهَدُ الْقَلْبَ وَوِظَائِفَهُ، «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثُّوبُ الْخَلْقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(٢)، ومن وصايا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لأصحابه: «كُونُوا يَتَابِعِ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ اللَّيْلِ، أَخْلَاسَ النَّبِيِّاتِ، جُدُّدَ الْقُلُوبِ، خُلُقَانَ الثِّيَابِ، تُعْرِفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، وَتَخْفُونَ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»^(٣). وفي الحديث والأثر الدعوة لتجديد القلب وتعاهده، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب التي تُسَمَّى المقامات والأحوال وهي من أصول الإيمان، وقواعد الدين»^(٤).

(١) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ٢ / ص ٢٩٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٥٩٠).

(٣) ينظر: التبصرة، لابن الجوزي، (م ٢ / ص ٢٨٨).

(٤) ينظر التحفة العراقية، لابن تيمية، (ص ١٣).



ومن جميل ما يُذكر في باب العناية بالقلب ما قاله أبو حفص النيسابوري رَحِمَهُ اللهُ: «حَرَسْتُ قَلْبِي عَشْرِينَ سَنَةً، ثُمَّ حَرَسَنِي قَلْبِي عَشْرِينَ سَنَةً، ثُمَّ وَرَدَتْ حَالَةٌ صِرْنَا فِيهَا مُحْرُوسِينَ جَمِيعًا»^(١)؛ فمن حرس قلبه، واعتنى به في الحال؛ وجد ثمرة ذلك في المال.



(١) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ٤ / ص ١٢٠).



تفاضل أعمال القلوب وتلازمها وعلاقتها بأعمال الجوارح

إيماننا فالنطق باللسان	عقد الفؤاد عمل الأركان
فالقلب أصل: والجوارح تبع	من اعتنى بالأصل والفرع ارتفع
تفاضل الأعمال أيضا حاصل	تلازم لا يخذعك الصائل

يذكر الناظم في هذه الآيات جملة من المسائل المهمة المتعلقة بأعمال القلوب، وبدأ البيت الأول بذكر تعريف الإيمان عند العلماء المحققين الذي يشمل قول اللسان، واعتقاد القلب من قول وعمل، وعمل الجوارح، فالإيمان مكوّن من هذه الأجزاء المهمة التي منها قول القلب وعمله الذي يُطلق عليه اعتقاد القلب. وقد دلّ على هذه المعاني الكتاب والسنة، وانعقد عليها إجماع سلف الأمة، فمن الأدلة على أن الإيمان قول بالقلب وعمل به؛ قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ومن الأدلة على أن الإيمان قول باللسان قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ومن الأدلة على أن الإيمان عمل الجوارح قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومعنى إيمانكم في الآية أي صلاتكم كما فسرها العلماء^(١)، ودليل الجميع من السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول:

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، (ص ١٢).



لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(١).

وتفصيل ذلك أَنَّ "لا إله إلا الله": قول اللسان، وإماطة الأذى: عمل الجوارح، والحياء عمل القلب، وقد نقل عددٌ من العلماء الاتفاق عن الصحابة والتابعين، ومن بعدهم من العلماء المحققين. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ذكرنا عن الشافعي ما ذكره من الإجماع على ذلك قوله في الأَم: وكان الإجماعُ من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ومن أدركناهم يقولون: إِنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ^(٢) ونية»^(٣). وقال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتفقت الصحابةُ والتابعون، فمن بعدهم من علماء السنة على أَنَّ الأعمال من الإيمان ... وقالوا: إِنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدةٌ، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية»^(٤). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل حكاه الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو عبيدة، وغير واحدٍ إجماعاً: أَنَّ الإيمان قولٌ وعمل، يزيد وينقص، وقد ورد فيه آيات كثيرةٌ وأحاديث»^(٥). فقول القلب هو اعترافه وتصديقه وإيقانه وإقراره، وعمل القلب هو انقياده لما صدق به، ونيته، وإخلاصه، ولو أزمه؛ كل ذلك من اعتقاد القلب الذي يمثل شطر الإيمان الباطن. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان له ظاهرٌ وباطنٌ، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (٩)، ومسلم في صحيحه واللفظ له، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٥).

(٢) وقد شرح ابن تيمية القول والعمل بقوله: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ومعنى ذلك: أنه قول القلب، وعمل القلب، ثم قول اللسان، وعمل الجوارح». ينظر: مجموع الفتاوى، (م ٧ / ص ٦٧٢).

(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ١٩٧).

(٤) ينظر: شرح السنة، للبغوي، (م ١ / ص ٣٨).

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ١ / ص ٦٧).



وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته»^(١).

وقد تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان ولكنها لا تختلف في الحقيقة، وإلى هذا أشار ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بقوله: «ومن هذا الباب أقوال السلف، وأئمة السنة في تفسير الإيمان، فتارة يقولون: هو قول وعمل، وتارة يقولون: هو قول وعمل ونية، وتارة يقولون: قول وعمل ونية واتباع سنة، وتارة يقولون: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، وكلُّ هذا صحيح»^(٢).

ثم في البيت الثاني انتقل الناظم لتقرير أمرين مهمين؛ الأول في بيان العلاقة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، ووجود الترابط بين أعمال الظاهر والباطن، فما كان في الباطن ينعكس في الظاهر، قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «إِذَا ثَبَتَ الْأَصْلُ فِي الْقَلْبِ، أَخْبَرَ اللِّسَانَ عَنِ الْفُرُوعِ»^(٣)، وأعمال الجوارح تَبَعُ لأعمال القلوب، بل إن أعمال الجوارح بدونها إما عديم المنفعة وإما قليلها، كما أن أعمال القلوب أعظم، والعناية بها مقدمة على أعمال الجوارح.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فأصل الإيمان في القلب، وهو قول القلب وعمله، وهو إقرار بالتصديق والحب والانقياد، وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، وإذا لم يعمل بموجبه ومقتضاه دلَّ على عدمه أو ضعفه»^(٤). وقال أيضًا: «والدين القائم بالقلب من الإيمان

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٢٨).

(٢) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ١٦٢).

(٣) ينظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم، (م ٩ / ص ١٢٠).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٧ / ص ٦٤٤).



علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع»^(١). وقال أيضًا: «إنَّ أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأنَّ الأعمال الظاهرة لا تنفعُ بدونها»^(٢). ويقول تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن أعمال القلوب: «هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تَبَعٌ ومُكَمِّلَةٌ ومُتَمِّمَةٌ»^(٣). وقال أيضًا: «معرفةُ أحكام القلوب أهمُّ من معرفة أحكام الجوارح؛ إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عليها»^(٤). وقال أيضًا: «ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها، عَلِمَ ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأنَّ أعمال القلوب أفرَض على العبد من أعمال الجوارح»^(٥).

ومن أظهر الأدلة في بيان العلاقة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح حديثُ النعمانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي مضى معنا: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(٦). قال ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه للمحرَّمات، واتقائه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه، فإنَّ كان قلبه سليمًا ليس فيه إلا محبةُ الله، ومحبةُ ما يحبه الله، وخشيةُ الله وخشيته الوقوع فيما يكرهه؛ صَلَحَتْ حركات الجوارح كُلُّها، ونشأ عن ذلك اجتنابُ المحرمات كُلِّها، وتوقُّ للشبهات حَذَرًا من الوقوع في المحرمات، وإنَّ كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتِّبَاعُ هواه، وطلبُ ما يحبه ولو كرهه الله؛ فَسَدَتْ حركاتُ

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٣٥٥).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ١٥).

(٣) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ١١٤٠).

(٤) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٨٧).

(٥) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ١١٤٦).

(٦) سبق تخريجه.



الجوارح كُلُّها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبَّهات بحسب اتباع الهوى هوئ القلب»^(١).

بل إنَّ أعمالَ الجوارح تتفاوت بتفاوتٍ ما يقوم في القلوب من أعمال. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَأْصِيلاً لهذا الأمر: «الأعمالُ تتفاضلُ بتفاضلِ ما في القلوب من الإيمان، والمحبة، والتعظيم، والإجلال، وقصد وجه المعبود دون شيء من الحظوظ سواء»^(٢).

وفي الشطر الثاني من البيت أشار الناظم إلى مسألةٍ دفعاً للتوهم، وهي أنَّ أعمال القلوب وإن كانت أعظم وأشرف من أعمال الجوارح فلا يعني هذا بحالٍ أن يُهمَل المرءُ أعمالَ الجوارح، بل بلوغُ الرتب العَلِيَّة يكون بالجمع بين الأصل والفرع، والناس في هذا الباب على تفاوتٍ عظيم.

فقسم من الناس اعتنى بعبوديات القلب، وأهمَل عبوديات الجوارح التي هي علامة عبوديات القلب، وقسم آخرُ اعتنى بعبوديات الجوارح، وأهمَل عبوديات القلب، حتى قسَى القلبُ وفَسَدَ، وقسم توسَّطوا وجمعوا بين العبوديتين. وأشار ابن القيم لهذه الأقسام في كلامٍ بديعٍ حيث قال: «والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل، هؤلاء لا التفاتَ لهم إلى عبودية جوارحهم، ففسدت عبودية قلوبهم، وأولئك لا التفاتَ لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم، والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهراً وباطناً، وقَدَّموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تَبَعاً لها، فأقاموا المَلِكَ وجنودَه في خدمة المعبود، وهذا هو حقيقة العبودية»^(٣).

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٤٤).

(٢) ينظر: المنار المنيف، لابن القيم، (ص ٣٣).

(٣) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ١١٤٧).



وفي البيت الثالث تطرّق الناظم إلى مسألتين: الأولى حول تفاضل أعمال القلوب، قوة وضعفاً، زيادةً ونقصاً، بل العمل نفسه قد يتفاوت بين الحين والآخر في قلب الإنسان، فالناس يتفاضلون في المحبة والخشية واليقين وغير ذلك من أعمال القلوب، فهم في ذلك درجات ومنازل، والمسألة تبع لمسألة زيادة الإيمان ونقصانه، والأدلة في هذا الباب معروفة، لكن حسب الإشارة إلى ثلاثة أدلة لها صلة قوية بموضوعنا، الأول قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في زيادة الخشوع: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، والخشوع من أجل أعمال القلوب، وما يقبل الزيادة يعتريه النقص، وهذا دليل التفاضل. قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: ويزيدهم ما في القرآن من المواعظ والعبر خشوعاً، يعني: خضوعاً لأمر الله وطاعته، واستكانة له»^(١). والثاني قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن طلب نبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُنَّ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَظْمَنَنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والمقصود بطمأنينة القلب هنا زيادة اليقين كما فسره بعض السلف، قال سعيد بن جبیر: «ليزداد يقيني»^(٢). والثالث قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، وفي الآية تقسيم الناس إلى ثلاث درجات في المنازل، ولا شك أن أعمال القلوب من صميم هذه الدرجات^(٣).

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م ١٥ / ص ١٢١).

(٢) ينظر: السنة، لعبد الله بن أحمد، (م ١ / ص ٣٦٩)، والشرعية، للأجري، (م ٢ / ص

٦١٠)، وشرح أصول الاعتقاد، للالكائي، (م ٥ / ص ٢٤).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٨ / ص ١٨٤).



والخلاصة:

أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاضِلُونَ فِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ كَمَا يَتَفَاضِلُونَ فِي أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَهَذَا التَّفَاضُلُ حَاصِلٌ فِي أَقْوَالِ الْقُلُوبِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّصَدِيقِ، وَفِي أَعْمَالِ الْقُلُوبِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْيَقِينِ وَنَحْوِهَا. قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَقْوَالِ الْقُلُوبِ: «نَفْسُ التَّصَدِيقِ وَالْعِلْمِ فِي الْقَلْبِ يَتَفَاضَلُ بِاعْتِبَارِ الْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ»^(١). وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْهَا «التَّصَدِيقُ الْقَائِمُ بِالْقُلُوبِ يَتَفَاضَلُ»^(٢). وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ: «أَعْمَالُ الْقُلُوبِ مِثْلُ: مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَخَشْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَرَجَائِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ هِيَ كُلُّهَا مِنَ الْإِيمَانِ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاتِّفَاقُ السَّلَفِ، وَهَذِهِ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِيهَا تَفَاضُلًا عَظِيمًا»^(٣). وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «أَحْوَالُ الْقُلُوبِ وَأَعْمَالُهَا مِثْلُ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَخَشْيَةِ اللَّهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى حُكْمِهِ، وَالشُّكْرِ لَهُ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ، مِمَّا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِيهَا تَفَاضُلًا لَا يَعْرِفُ قَدْرَهُ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ أَنْكَرَ تَفَاضُلَهُمْ فِي هَذَا فَهُوَ إِمَّا جَاهِلٌ لَمْ يَتَصَوَّرْهُ، وَإِمَّا مُعَانِدٌ»^(٤).

والشطر الثاني من هذا البيت إشارة إلى أَنَّ الْأَعْمَالَ الْقَلْبِيَّةَ فِي غَايَةِ التَّرَابِطِ وَالِاتِّصَالِ وَالتَّلَازُمِ، وَبَعْضُهَا يَتَوَقَّفُ عَلَى بَعْضٍ، وَيَتَدَاخَلُ بَعْضُهَا مَعَ الْآخَرِ، وَيَتَرَقَّى الْإِنْسَانُ مِنْ بَعْضِهَا لِلْآخَرِ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ كَلَامَ الْعُلَمَاءِ عَنْ تَرَابِطِ الْمَحَبَّةِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ بَعْضُهَا، وَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهَا وَقَعَ فِي الشُّطْطِ،

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (م ٧ / ص ٥٦٤).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (م ١ / ص ١١٣).

(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ٢٢٢).

(٤) ينظر: المصدر السابق، (ص ٣٩١).



ولذلك جمع الله بينها في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضره»^(١). وقال عن الصبر والشكر: «فكلُّ من الصبر والشكر داخل في حقيقة الآخر، لا يمكن وجوده إلا به»^(٢)، وقال أيضًا: «صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر في مرتبته؛ بل الصبر معه، وبه يتحقق الرضا والشكر، لا تصوّر ولا تحقق لهما دونّه، وهكذا كلُّ مقامٍ مع الذي فوقه، كالتوكل مع الرضا، والخوف والرجاء مع الحب»^(٣).

وختم الناظم هذا البيت بالحذر من الصائل، والصائل مأخوذ في الأصل من صَوَلَ البعير الذي يقصد الوثوب على الناس أو يعدو عليهم ويقتلهم^(٤)، ثم صار يُطلق على المعتدي على نفس الغير أو ماله أو عرضه بغير حق، من إنسان أو حيوان. وجاءت أحكام دفع الصائل في كتب الفقه، والصول والاعتداء قد يكون حسياً أو معنوياً، وقصد الناظم الثاني أي الحذر من المعتدي في هذا الباب بأقوال مخالفة للكتاب والسنة، فاحذر خداعه وتزيينه للباطل، وقديماً قالوا: رُبَّ قولٍ أشدُّ من صَوْلٍ، وسواء هذه المسائل التي أشار إليها الناظم هنا، أو غيرها من مسائل أعمال القلوب.

فإنك تجد من يُخرج أعمال القلوب من الإيمان فيَقْصِر الإيمان على

(١) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ٨٥٠).

(٢) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ١٩١).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (ص ٣٦٨).

(٤) ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ١٣٢١)، والمصباح المنير، للفيومي،

(ص ١٣٤)، (ص و ل).



التصديق والمعرفة فحسب أو أقوال اللسان، أو ينفي التأثير المتبادل بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، أو يُنكر التفاضل بين أعمال القلوب بالزيادة والنقصان، أو يحدث أعمالاً للقلوب لا دليل عليها، فكل ذلك مما لا مستند له من الدليل، بل هو مصادمٌ للدليل يُحذّر منه ويُتقى.



أقسام القلوب

ثم القلوبُ فسلِيمٌ من شُبَّةٍ ومن ذُنُوبٍ عند ذي عقل نَبَّةٍ
وعكسُهُ المَيِّتُ لا يُقَادُ بينهما العليلُ قد يُقَادُ

يذكر الناظم في هذين البيتين أقسامَ القلوب باعتبار أحوالها وصفاتها:

فالقسم الأول من القلوب: القلبُ السليمُ أو القلب الحيُّ، وقد ورد ذكر القلب السليم مرتين في كتاب الله، في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۖ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وحقيقة القلب السليم هو السالمُ من الشبهات والشهوات، وصاحب العقل النبيه هو الذي يحرص على سلامة قلبه من الشُبَّةِ والرَّيْبِ والشكوك، ويحفظه من الذنوب وعلى رأسها الشرك^(١)؛ حتى يتحقق له الفوزُ يوم القيامة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اختلفت عباراتُ الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سَلِمَ من كل شهوة تُخَالِفُ أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارضُ خبره فسَلِمَ من عبودية ما سواه، وسَلِمَ من تحكيم غير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسَلِمَ في محبة الله مع تحكيمه لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذلُّ له، وإيثار مرضاته في كلِّ حالٍ، والتباعد من سخطه بكلِّ طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا

(١) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، (م ٣ / ص ٣٩٠)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٤ / ص ٤٥٢)، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص ٥٤٢).



تَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ، فالقلب السليم: هو الذي سَلِمَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لغير الله فيه شَرَكٌ بوجهٍ ما، بل قد خُلِصَتْ عِبَادَتُهُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: إِرَادَةً وَمَحَبَّةً وَتَوَكُّلاً وَإِنَابَةً وَإِخْبَاتًا وَخَشْيَةً وَرَجَاءً، وَخُلِصَ عَمَلُهُ لِلَّهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَإِنْ أَبْغَضَ أَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَإِنْ أَعْطَى أَعْطَى لِلَّهِ، وَإِنْ مَنَعَ مَنَعَ لِلَّهِ، وَلَا يَكْفِيهِ هَذَا حَتَّى يَسْلَمَ مِنَ الانْقِيَادِ وَالتَّحْكِيمِ لِكُلِّ مَنْ عَدَا رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَعْقِدُ قَلْبَهُ مَعَهُ عَقْدًا مُحْكَمًا عَلَى الْإِثْمَامِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَحْدَهُ دُونَ كُلِّ أَحَدٍ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ^(١).

والقسم الثاني من أقسام القلوب: القلب الميت، وهو الذي لا يقبل الحق ولا ينقاد له، وهو قلب الكافر والمنافق. وقد أشار الله عَزَّجَلَّ إِلَى مَوْتِ القلوب فِي عِدَّةِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِهِ، كَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وَقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، فَهَذِهِ الْآيَاتُ وَصَفَتْ لِقُلُوبِ الْكَفَّارِ الْمَيِّتَةِ. قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَوَصَفُ الْكَافِرِ بِأَنَّهُ مَيِّتٌ، أَوْ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ الْحَيَّ هُوَ الَّذِي يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَقْبَلُهُ وَيُؤَثِّرُهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَإِذَا مَاتَ الْقَلْبُ لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِحْسَاسٌ، وَلَا تَمْيِيزٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا إِرَادَةٌ لِلْحَقِّ وَكَرَاهِيَةٌ لِلْبَاطِلِ، بِمَنْزِلَةِ الْجَسَدِ الْمَيِّتِ الَّذِي لَا يُحَسُّ بِلَذَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَأَلَمِ فَقْدِهِمَا»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي وَصْفِ الْقَلْبِ الْمَيِّتِ، وَهُوَ ضِدُّ الْحَيِّ فِي صِفَاتِهِ: «الْقَلْبُ الْمَيِّتُ الَّذِي لَا حَيَاةَ بِهِ، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ رَبَّهُ، وَلَا يَعْبُدُهُ بِأَمْرِهِ وَمَا يَجِبُهُ وَيَرْضَاهُ، بَلْ هُوَ وَاقِفٌ مَعَ شَهَوَاتِهِ وَلَذَاتِهِ، وَلَوْ كَانَ فِيهَا سَخَطُ رَبِّهِ وَغَضَبُهُ،

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٢).

(٢) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم، (م ١ / ص ٢٧٠).

فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظّه، رَضِيَ رَبُّهُ أَمْ سَخِطَ، فهو متعبّدٌ لغير الله: حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلاً، إِنَّ أَحَبَّ أَحَبَّ لَهْوَاهُ، وَإِنْ أَبْغَضَ أَبْغَضَ لَهْوَاهُ، وَإِنْ أَعْطَى أَعْطَى لَهْوَاهُ، وَإِنْ مَنَعَ مَنَعَ لَهْوَاهُ، فهو آثِرٌ عنده، وَأَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ رِضَا مَوْلَاهُ، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركّبه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمورٌ، وبسكرة الهوى وحبّ العاجلة مغمورٌ، ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصح، ويتبع كلّ شيطانٍ مريد، الدنيا تُسَخِطُه وتُرضيه، والهوى يُصمُّه عما سوى الباطل ويُعميه»^(١).

والقسم الثالث من أقسام القلوب: القلب المريض: وهو القلب الذي يكون على الطاعة والسنة تارةً، وعلى المعصية والشبهة تارةً أخرى، ومرضُ القلوب على نوعين: مرض النفاق، ومرض ضعف الإيمان؛ إما بالشبهات وإما بالشّهوات والثاني هو المقصود هنا، وَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَلَوْبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، أي: مرضُ الشك والنفاق^(٢)، ومن الثاني قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أي: مرض شهوة الحرام^(٣)، فالقلب المريض متردّد بحسب الوارد عليه، وفيه تجاذبٌ بين الخير والشر. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلهذا مرضُ القلب إذا وَرَدَ عَلَيْهِ شَبْهَةٌ أَوْ شَهْوَةٌ قَوَّتْ مَرَضَهُ، وَإِنْ حَصَلَتْ لَهُ حِكْمَةٌ وَمَوْعِظَةٌ كَانَتْ مِنْ أَسْبَابِ صَلَاحِهِ وَشِفَائِهِ»^(٤). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف القلب المريض: «قلبٌ له حياةٌ وبه علةٌ، فله مادتان: تمدّه هذه مرةً،

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٣)

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ٩٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ٣ / ص ٦٣٦).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٩٤)



وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما ففيه من محبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها، والحرص على تحصيلها، والحسد، والكبر، والعجب، وحبّ العلوِّ والفساد في الأرض بالرياسة: ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعو إلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعو إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً^(١).

ومن الإشارات إلى هذا التقسيم ما جاء عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلوب أربعة: قلبٌ أُجْرِدُ فيه سراجٌ يزهر، فذلك قلبُ المؤمن، وقلبٌ أغلفٌ، فذلك قلبُ الكافر، وقلبٌ منكوسٌ، فذلك قلبُ المنافق، عَرَفَ ثم أنكر، وأبصر ثم عمي، وقلبٌ تمدُّه مادتان: مادةٌ إيمانٍ، ومادةٌ نفاقٍ، وهو لما غلب عليه منهما^(٢)»، وقلبُ المنافق والكافر داخلان في القلب الميت.

ومن بدیع ما ذكر في وصف القلوب الثلاثة ما حرَّره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «والقلوب ثلاثة:

قلبٌ خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلبٌ مظلمٌ، قد استراح الشيطانُ من إلقاء الوسوسِ إليه؛ لأنه قد اتخذهُ بيتاً ووطناً، وتحكَّم فيه بما يريد، وتمكَّن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قلبٌ قد استنار بنور الإيمان، وأوقد فيه مصباحه، لكنَّ عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطانِ هنالك إقبالٌ وإدبارٌ ومجالاتٌ

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٤)

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان، (ص ١٧)، وصححه الألباني موقوفاً، وشرحه ابن القيم في إغاثة اللهفان شرحاً ماتعاً، (م ١ / ص ١٨).



ومطامعُ، فالحربُ دُولٌ وسِجالٌ، وتختلف أحوالُ هذا الصنفِ بالقلة والكثرة، فمنهم مَنْ أوقات غلبته لعدوه أكثرُ، ومنهم مَنْ أوقات غلبه عدوه له أكثرُ، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان، قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حُجُبُ الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلماتُ، فلنوره في صدره إشراقٌ، ولذلك الإشراق إيقادٌ، لو دنا منه الوسواسُ احترق به، فهو كالسماء التي حُرِسَتْ بالنجوم، فلو دنا منها الشيطانُ ليتخطأها رُجم فاحترق^(١).



(١) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٥٢).



أعمال القلوب

أعمالها كثيرة دقيقة وخُذ صفاتها على الحقيقة

شرح الناظم في ذكر أعمال القلوب بالإشارة إلى أنَّ أعمال القلوب كثيرة في الأفراد، دقيقة في الأوصاف، حيث يشير الناظم إلى حقيقة أبرز أعمال القلوب وماهيتها بعبارة مختصرة تدلُّ على المقصود والمقصود بأعمال القلوب ما يتعلَّق أداؤها بالقلب دون بقية الجوارح، وقد أشار إليها العلماء في كتب الاعتقاد^(١) وشُعَبِ الإيمان^(٢). قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «عمل القلب: مثل حبِّ الله ورسوله، وخشية الله، وحبِّ ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله، وجعلها من الإيمان»^(٣).



(١) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي، (م ٥ / ص ٩١١-٩٤٠)، والإبانة، لابن بطّة، (م ٢ / ص ٦٥٠-٦٥٣).

(٢) مثل المنهاج في شعب الإيمان للحليمي، والجامع لشعب الإيمان للبيهقي، ومختصره للقرطبي، وغيرها.

(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ١٧٦).

إفرادك الحقَّ بحُسنِ مقصدٍ يُعرف بالإخلاصِ والتَّجَرُّدِ

بدأ الناظم بذكر أولِ الأعمالِ القلبية، وهو الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. والعملُ من غيرِ إخلاصٍ جسدٌ بلا روح؛ يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «الإخلاص: مسكٌ مَصُونٌ في مسكِ القلب، ينبهُ ريحُه على حامِلِه. العمل صورة، والإخلاص روح؛ إذا لم تُخْلِص فلا تَتَعَب، لو قطعت سائرَ المنازل لم تكن حاجًّا إلا بشهود الموقف»^(١).

والإخلاص في اللغة: هو تنقية الشيء وتصفيته وتهذيبه^(٢).

والإخلاص اصطلاحًا: إفراد الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقصد في الطاعة^(٣)، يقول سهل التستري رَحِمَهُ اللهُ: «نَظَرَ الْأَكْيَاسُ فِي تَفْسِيرِ الْإِخْلَاصِ، فَلَمْ يَجِدُوا غَيْرَ هَذَا: أَنْ تَكُونَ حَرَكَاتُهُ وَسُكُونُهُ فِي سِرِّهِ وَعِلَانِيَتِهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا يَمَازِجُهُ شَيْءٌ: لَا نَفْسٌ، وَلَا هَوًى، وَلَا دُنْيَا»^(٤). هذا هو حقيقة الإخلاص: أَنْ يَكُونَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَرَادَكَ فِي الْعَمَلِ دُونَ مَنْ سِوَاهُ، فَتُخْلِصَ الْعَمَلَ مِنْ شَوَائِبِ التَّعَلُّقِ بِالْمَخْلُوقِينَ.

ومما يقارب الإخلاص في المعنى ويتداخل معه: الصدق، فقد يُعَبَّرُ أحيانًا بالصدق ويُراد به الإخلاص. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يتم الإخلاصُ إلا

(١) ينظر: المدهش، لابن الجوزي، (ص ٤٣٤)

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣٢٧)، (خ ل ص)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٧ / ص ٢٦)، (خ ل ص)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ٧٩٧)، (خ ل ص).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩١).

(٤) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٦٤٦٨).



بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص»^(١).

وقد ذكر العلماء فروقاً بينهما، منها أَنَّ الإخلاصَ حفظُ النفس من ملاحظة الخلق، والصدقُ حفظُ النفس من ملاحظة حظِّ النفس، فالمُخلص لا رياءَ له، والصادقُ لا إعجابَ له^(٢)، وقيل في الفرق: إِنَّ الإخلاصَ لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، وأما الصدقُ فيكون بالنية قبل الدخول فيه، وقيل أيضاً: الصدق هو الأصل، والإخلاص متفرع عنه^(٣).

والإخلاص ثمرات وفوائد عظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها على سبيل المثال:

أولاً: الفوزُ بالجنة، والنجاةُ من النار، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(٤) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا^(٥) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا^(٦) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا^(٧) [الإنسان: ٩ - ١٢]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(٨).

ثانياً: قبولُ العمل، وحصولُ الأجر؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتَغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(٩)، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩١).

(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٩١).

(٣) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ١٢-١٣).

(٤) أخرجه البخاري، أبواب التهجد، باب صلاة النوافل جماعة، برقم (١١٨٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، برقم (٣٣).

(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، برقم (٣١٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٢).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا»^(١).

ثالثاً: الوقاية من الشيطان والشهوات، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى -عن الشيطان-: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» [يوسف: ٢٤]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلما حَقَّقَ العبد الإخلاص في قول: لا إله إلا الله، خرج من قلبه تأله ما يهواه، وتُصَرَّفُ عنه المعاصي والذنوب»^(٢).

رابعاً: وقاية القلب من الغل والغش، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، مُنَاصَحَةُ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»^(٣). وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا يحمل الغل، ولا يبقى مع هذه الثلاثة، فإنها تنفي الغل، والغش، وهو فساد القلب وسخائمه؛ فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه، ويخرجه ويزيله جملة».

خامساً: حصول الرفعة والظفر، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ لَنْ تُخْلَفَ، فَتَعْمَلْ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَرْدَدَتْ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً»^(٤).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، برقم (٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلاث، برقم (١٦٢٨).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٢٦٠).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، برقم (٢٦٥٨)، وابن ماجه في سننه، أبواب المناسك، باب الخطبة يوم النحر، برقم (٣٠٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٤٠٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «اللهم أَمْضْ لأَصْحَابِي هَجْرَتَهُمْ، وَمَرِثَتَهُ لِمَنْ مَاتَ بِمَكَّةَ»، برقم (٣٩٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلاث، برقم (١٦٢٨).



وقال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ، وَصَلَاتِهِمْ، وَإِخْلَاصِهِمْ»^(١).

وسبل تحقيق الإخلاص كثيرة، من أبرزها:

أولاً: مقتُ النفس ومجاهدتها؛ قال هشام الدستوائي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوماً قطُّ أطلب الحديث أريد به وجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٢). ويقول يوسف بن حسين رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء من قلبي، فكأنه يَنْبُتُ على لَوْنٍ آخَرَ»^(٣).

ثانياً: الحرص على إخفاء العمل، وللسلف في هذا الباب شأنٌ عجيبٌ. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَمَا يَشْعُرُ جَارُهُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فَقَّهَ الْفَقَّهَ الْكَثِيرَ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ الزَّوْرُ، وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ، وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السِّرِّ فَيَكُونَ عِلَانِيَةً أَبَدًا! وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَمَا يُسْمَعُ لَهُمْ صَوْتُ»^(٤).

ثالثاً: الخوفُ من فتنة الشهرة. قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما صدق الله عَبْدٌ أَحَبَّ الشَّهْرَةَ»^(٥). وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال لي سفيان: إياكَ والشهرة، فما أتيتُ أحداً إلا ونهاني عن الشهرة»^(٦).



-
- (١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، برقم (٣١٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٣٨٨).
- (٢) ينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي، (م ٣ / ص ١٧٥).
- (٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩٢).
- (٤) ينظر: الزهد، لابن المبارك، (ص ٤٥).
- (٥) ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، (م ٧ / ص ٣٩٣).
- (٦) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٧ / ص ٢٣).

كَذَاكَ مِيلُ الْقَلْبِ مَعَ تَعْظِيمِ فَذَلِكَمُ مَحَبَّةُ الْكَرِيمِ

شرع الناظم بعد منزلة الإخلاص إلى أركان العبادة الثلاثة، وهي المحبة، والرجاء، والخوف، وهي من أجل الأعمال القلبية المتلازمة. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله ثلاثة: المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة»^(١). وقال أيضًا: «فما حُفِظَتْ حدودُ الله ومحارمُه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يُرجى صلاحُه أبدًا، ومتى ضَعُفَ فيه شيءٌ من هذه ضعف إيمانه بحسبه»^(٢). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «القلب في سيره إلى الله عَزَّجَلَّ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سَلِمَ الرأسُ والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قُطِعَ الرأسُ مات الطائر، ومتى قُطِعَ الجناحان فهو عُرضةٌ لكل صائد وكاسر»^(٣). وقال ابن رجب: «وقد عُلِمَ أَنَّ العبادة تنبني على ثلاثة أصولٍ: الخوف، والرجاء، والمحبة؛ وكلٌّ منها فرضٌ لازمٌ، والجمعُ بين الثلاثة حتمٌ واجبٌ، فلهذا كان السلف يذمُّون من تَعَبَّدَ بواحدٍ منها وأهمَلَ الآخرين»^(٤).

وأول هذه المنازل التي ذكرها الناظم منزلة المحبة، وهذه المنزلة «من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عملٍ

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١ / ص ٩٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ١٥ / ص ٢١).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٥٤).

(٤) ينظر: استنشاق نسيم الأنس، لابن رجب، (ص ٦).



من أعمال الإيمان والدين»^(١)، وهي «قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون»^(٢). وأصل مادة «حب» تدور على خمسة معانٍ: الصفاء والبياض، والعلو والظهور، واللزوم والثبات، والحفظ والإمساك، واللَبّ^(٣). وهذه المعاني من لوازم المحبة ومقتضياتها، فهي في الحقيقة «صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوها وظهورها عليه، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزومًا لا تفارقه، وإعطاء المحب محبوبه لبّه، وأشرف ما عنده، وهو قلبه، واجتماع عزماته وإرادته وهمومه على محبوبه»^(٤).

واختلف العلماء في تحديد المحبة في الاصطلاح على أقوال كثيرة، لأنها من الألفاظ التي يصعب حُدُّها^(٥)، ويمكن تعريف الحب عمومًا بأنه «الميل إلى ما يوافق المحب»^(٦)، وأما حب الله، وهو المقصود هنا، فيعرّف بأنه: ميل القلوب إليه بالتعظيم والإجلال والطاعة^(٧).

والمحبة ثمرات وفوائد، منها ما يلي:

أولاً: حصول حلاوة الإيمان في القلب؛ قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا،

(١) ينظر: العبودية، لابن تيمية، (ص ١٢٨).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ٦).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٤٨)، (ح ب ب)، ومعجم تهذيب اللغة، للأزهري، (م ٤ / ص ٥)، (ح ب ب)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٢ / ص ٢١٢)، (ح ب ب).

(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٠).

(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٠)، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، (ص ١٦٥).

(٦) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ٢ / ص ١٤).

(٧) ينظر: جلاء الأفهام، لابن القيم، (ص ٢٠٣)، وبدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ٨٥٢)، وروضة المحبين، لابن القيم، (ص ٢٩٥).

وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»^(١).

ثانيًا: محبة الله لعبده، فالجزاء من جنس العمل، فَمَنْ مَلَأَ قَلْبَهُ بِحُبِّ اللَّهِ وصفاته، رُجِيَ لَهُ محبة الله له، وشاهد ذلك أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِ فَيَخْتِمُ بِ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «سَلُّوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»^(٢).

ثالثًا: القبول في الأرض، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

وأما الأسباب الموصلة إلى محبة الله فقد أجمَلَهَا ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي سياق جميل، حيث قال: «فصل في الأسباب الجالية للمحبة والموجبة لها، وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبُّر والتفهُّم لمعانيه وما أُريدَ به، كتدبُّر الكتابِ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم (١٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله، برقم (٧٣٧٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، برقم (٨١٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحبَّ الله عبدًا حَبَّبه إلى عباده، برقم (٢٦٣٧).



الذي يحفظه العبدُ ويشرحه؛ ليتفهَّم مُرادَ صاحبه منه.

الثاني: التقربُ إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبة بعد المحبة.

الثالث: دوائمُ ذكره على كلِّ حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إثارة محبته على محابِّك عند غلبات الهوى، والتسنُّمُ إلى محابِّه وإن صعبَ المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلُّبه في رياض هذه المعرفة ومبانيها؛ فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة.

السادس: مشاهدة برِّه وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعيةٌ إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها، انكسارُ القلب بكليته بين يدي الله تبارك وتعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدُّب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاطُ أطياب ثمرات كلامهم كما يُنتقى أطياب الثمر، ولا تتكلَّم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباحة كلِّ سببٍ يحول بين القلب وبين الله عزَّ وجلَّ.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبُّون إلى منازل المحبة^(١).

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، بتصرف يسير، (م ٣ / ص ١٧).

كَذَا الرَّجَاءُ: ثِقَّةٌ بِالْجُودِ مِنْ إِلَهِ خَالِقِ الْوُجُودِ

يذكر الناظم في هذا البيت منزلة الرجاء، وهي من أعظم المحفّزات، وباعثة على الطاعات، والرجاء لغة مأخوذ من مادة (ر ج و) التي تدل على الأمل الذي هو نقيض اليأس^(١)، «وقد ورد الرجاء في القرآن على ستة أوجه:

أولها: بمعنى الخوف، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

والثاني: بمعنى الطمع، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

والثالث: بمعنى توقّع الثواب، ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

والرابع: الرجا المقصور بمعنى الطرف، ﴿وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧].

والخامس: الرجا المهموز، ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] أي: احبسه.

والسادس: بمعنى التأخير، ﴿تُرْجَى مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]

أي: تؤخّر^(٢).

والرجاء في الاصطلاح: هو الثقة بـجود الربّ الخالق، كما جاء في النّظم، وقريب منه في التعريف هو: الاستبشار بجود الربّ تبارك وتعالى وفضله، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه وتعالى^(٣). والرجاء يقترن بالعمل والأمل، فإن

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١٤ / ص ٣١٠)، (رج و)، والقاموس المحيط، للفيروز آبادي، (ص ١٦٦٠)، (رج و)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤٤٥)، (رج و).

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي، بتصرف (م ٣ / ص ٥٠).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٦).



خلا من العمل دخل في حيز الغرور والأمان. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والفرق بينه وبين التمني، أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل»^(١).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ إحدى عشرة فائدة للرجاء^(٢)، نذكر منها:

أولاً: أن الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سيره إلى الله عزَّ وجلَّ، فهو المنشط للطاعة، الدافع للعبادة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِثٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ثانياً: أن الرجاء مقترنٌ بحسن الظن، وحسن الظن بالله سبيلٌ لتحقيق المأمول، كما جاء في الحديث القدسي، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»^(٣).

ثالثاً: أن الرجاء بريدٌ لعباداتٍ قلبيةٍ أخرى مثل محبة الله، والشكر، والخوف، والافتقار، وكلُّ ما حصل له ما يرجوه ازداد حباً وشكراً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

ومما يوصل العبد إلى تحقيق هذه المنزلة التعرف على أسماء الله ومعانيها وما فيها من العبوديات، لا سيما الرحمن، الرحيم، الكريم، الرؤوف، فالرجاء

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٧).

(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٥٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٩١٩٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب حسن الظن بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ذكر البيان بأن الله جَلَّ وَعَلَا يعطي مَنْ ظَنَّ ما ظنَّ؛ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ، برقم (٦٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٦٣).



«عبوديةٌ وتعلُّقٌ بالله من حيثُ اسمُهُ: المحسنُ البرُّ، فذلك التعلق والتعبُّد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجب للعبد الرجاء من حيث يدري، ومن حيث لا يدري؛ ففوة الرجاء على حسب قوَّة المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وغلبة رحمته غضبه»^(١)، ثم النظر في نعم الله وألطفه عليه، وتجذُّدها في حياته، والتأمل في أبواب الثواب، وكيف يُضاعف الله الحسنات، ويعطي الكثير على العمل اليسير، والنظر في حلمه وجوده وعفوه وتجاوزه عن المسيء، والعمل على تعزيز محبة الله في القلب، فالمحبة تقود للرجاء، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فعلى قدر تمكُّن محبة الله عَزَّجَلَّ من القلب يتنامى خوفه وتعظيمه ورجاؤه»^(٢).



(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٤٢).

(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٤٣).



والخوفُ قلٌّ تألَّمُ الأَوَابِ مستحضراً مرارةَ العقابِ

يذكر الناظم في هذا البيت عبادةَ الخوف، وهي من المقامات العلية، والمنازلِ الرضيّة، قال وهبُ بن منبه رَحِمَهُ اللهُ: «ما عبد الله بمثل الخوف»^(١)، وقال بعضهم: «أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة الخوفُ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٢)، وتدل مادة (خ و ف) على الذعر والفرع،^(٣) «وقد ورد الخوفُ في القرآن على وجوه»^(٤) منها:

الأول: بمعنى القتل، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والثاني: بمعنى الحرب، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ١٩].

والثالث: بمعنى العلم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مَّوْصٍ جَنْفًا﴾ [البقرة: ١٨٢].

والرابع: النقص، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧].

الخامس: بمعنى الرعب من العذاب، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

والخوف في الاصطلاح: هو تألَّم القلب بسبب توقُّع العقاب والمكروه في

(١) ينظر: مجموع رسائل ابن رجب، (م ٤ / ص ٩٤).

(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٨٤٩).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣٣٦)، (خ و ف)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ١٠٤٦)، (خ و ف).

(٤) ينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي، بتصرف، (م ٢ / ص ٥٧٨).



المستقبل^(١)، وهو ما أشار إليه الناظم. وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف^(٢). والخوف والخشية لفظتان متقاربتان، إلا أن الخشية تكون مع تعظيم وعلم^(٣)، وعليه فالخشية أخص من الخوف.

والخوف يكون محمودًا حينما يحول بين صاحبه وبين محارم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الخوف ما حجزك عن معاصي الله، فإذا زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه»^(٤). وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «القدر الواجب من الخوف، ما حَمَلَ على أداء الفرائض، واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس على التَّشْمِير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإن تزايد على ذلك بأن أُوْرَثَ مرضًا، أو موتًا، أو همًّا لازمًا بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المحبوبة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ لم يكن محمودًا»^(٥).

والخوف ثمار عديدة، نذكر منها:

أولاً: خوف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى طريق الجنة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن: ٤٦]. قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «هو الرجل يريد أن يذنب، فيذكر مقام ربه، فيدعُ الذنب»^(٦). وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

(١) ينظر: مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، (ص ٦٢).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم (م ١ / ص ٥١٢).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٥٤٩)، وفيض القدير، للمناوي، (م ١ / ص ٢١٥)، والمفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، (ص ٢٨٣)، والكليات، للكفوي، (ص ٤٢٨).

(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٥١).

(٥) ينظر: التخويف من النار، لابن رجب، (ص ٣٤).

(٦) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٧٢٥).



وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ثانيًا: الخوف من الله في الدنيا أمان في الآخرة، قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفِينَ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمِنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

ثالثًا: الخائف من ربه في ظلِّ العرش يوم القيامة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبْتُهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٢).

رابعًا: الخوف سائق يسوق العبد سوقًا سريعًا إلى امثال المأمور واجتناب المحذور، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمُنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةً، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةَ»^(٣)، فَمَنْ خَافَ اللَّهَ أَسْرَعَ وَشَمَّرَ فِي دُرُوبِ الْآخِرَةِ.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب حسن الظن بالله تعالى، ذكر البيان بأن حسن الظن الذي وصفناه يجب أن يكون مقروناً بالخوف منه جل وعلا، برقم (٦٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد، برقم (٦٦٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٦٤٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٤).

خامساً: للخائف مهابةً ومنزلةً في قلوب الخلق، فالجزاء من جنس العمل، لَمَّا خاف من الله جعل له هيبَةً في قلوب الخلق، قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: «على قدر حبِّك لله يحبُّك الخلقُ، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق»^(١).

وأما أبرز سبل تحقيق الخوف فهي على النحو الآتي:

أولاً: التعرف على الله بأسمائه وصفاته، فالعلمُ بالله يورث الخشية، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لأنَّ مَنْ عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشية الله مقرونةٌ بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية»^(٢).

ثانياً: تدبُّر القرآن، لا سيما آيات الوعيد، والتخويف الشديد، عن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ شَبْتُ. قَالَ: «شَيْبَتَنِي هُوْدٌ وَالْوَأَقَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١) وَ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾^(٢)». قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: لعلَّ ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع، والوعيد الشديد، لاشتغالهنَّ مع قِصَرِهِنَّ على حكاية أهوال الآخرة، وعجائبها وفضائِعها، وأحوال الهالكين والمعذَّبين»^(٣).

ثالثاً: سؤال الله الخشية والرهبة منه، وفي المأثور: «اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ

(١) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٩٤٨).

(٢) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ٢٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ومن سورة الواقعة، برقم (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٥).

(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٤ / ص ١٦٩).



فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»^(١)، وأيضاً قوله: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ»^(٢)، وفي الدعاء الجامع: «رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيئًا»^(٣).

ومع ذكر منزلتي الخوف والرجاء نشير إلى أن المرء في سيره إلى الله يحتاج إلى المنزلتين معاً، للتلازم بينهما؛ فكل خائف راجٍ، وكل راجٍ خائفٌ، والعمل بأحدهما دون الآخر قد يؤدي للوقوع في بعض الكبائر، لأن الخوف بلا رجاء قد يوقع في اليأس والقنوط، كما أن الرجاء بلا خوف قد يوقع في الأمن من مكر الله، وقد وصف الله الأنبياء والصالحين والعباد بأنهم يجمعون بين الرغبة والرغبة والرجاء والخوف في آيات كثيرة، منها قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وغيرها من الآيات، وكذلك في صحيح الأحاديث، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»^(٤).

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب نوع آخر، برقم (١٣٠٥)، وصححه الألباني في ظلال الجنة، برقم (١٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٢٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٥١)، وابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في ظلال الجنة، برقم (٣٨٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٥).

وَمِنْ هُنَا جَاءَتْ مَسْأَلَةُ التَّغْلِيْبِ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ، هَلْ تُغْلِبُ جَانِبَ الرَّجَاءِ أَوْ الْخَوْفِ؟، فَذَهَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ إِلَى تَغْلِيْبِ جَانِبِ الرَّجَاءِ مُطْلَقًا، وَبَعْضُهُمْ إِلَى تَغْلِيْبِ جَانِبِ الْخَوْفِ مُطْلَقًا، وَبَعْضُهُمْ ذَهَبَ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ سَوَاءً، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُغْلِبُ الرَّجَاءُ فِي الطَّاعَةِ، وَيُغْلِبُ الْخَوْفُ إِنْ هُمْ بِمَعْصِيَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُغْلِبُ الْخَوْفُ فِي وَقْتِ الصَّحَةِ، وَالرَّجَاءُ فِي وَقْتِ الْمَرَضِ، وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَقْوَالِ^(١). وَلَعَلَّ الْأَقْرَبَ أَنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَحْوَالِ، وَالْمَرءُ يَقْدَمُ الْخَوْفُ أَوْ الرَّجَاءُ بِحَسَبِ حَاجَتِهِ.



(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٤ / ص ٥١)، ومدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٥٤)، والآداب الشرعية، لابن مفلح، (م ٢ / ص ٢٤)، والتخويف من النار، لابن رجب، (ص ٣١).



تَوَكَّلْ أَخَذَكَ بِالْأَسْبَابِ مَعْتَمِدًا فِيهِ عَلَى الْوَهَّابِ

يَذْكُرُ النَّاظِمُ فِي هَذَا الْبَيْتِ مَنْزِلَةَ قَلْبِيَّةً عَظِيمَةً، وَهِيَ: مَنْزِلَةُ التَّوَكُّلِ، وَهُوَ أَصْلٌ لِمَقَامَاتِ الدِّينِ، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَظْهَرَ أَنَّ التَّوَكُّلَ أَصْلٌ لَجَمِيعِ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ، وَلِجَمِيعِ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ مَنْزِلَتَهُ مِنْهَا مَنْزِلَةُ الْجَسَدِ مِنَ الرَّأْسِ»^(١). وَالتَّوَكُّلُ فِي اللُّغَةِ: التَّفْوِيضُ، وَالاعْتِمَادُ عَلَى الْغَيْرِ، وَتَسْلِيمُ الْأَمْرِ لَهُ^(٢).

والتَّوَكُّلُ اصْطِلَاحًا^(٣) - كَمَا بَيَّنَّ النَّظْمُ - هُوَ: صَدَقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى الْوَهَّابِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مَعَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ^(٤). وَيُظْهِرُ بِذَلِكَ أَنَّ التَّوَكُّلَ يَنْبَنِي عَلَى رَكْنَيْنِ: الْأَوَّلُ الثِّقَةُ بِاللَّهِ وَتِمَامُ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهِ وَتَفْوِيضُ الْأَمْرِ إِلَيْهِ، وَالثَّانِي: هُوَ الْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ. قَالَ سَهْلُ التَّسْتَرِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ طَعَنَ فِي الْاِكْتِسَابِ فَقَدْ طَعَنَ فِي السَّنَةِ، وَمَنْ طَعَنَ فِي التَّوَكُّلِ فَقَدْ طَعَنَ فِي الْإِيمَانِ»^(٥).

وَأَمَّا عَنْ ثَمَرَاتِ التَّوَكُّلِ فَهِيَ كَثِيرَةٌ، وَلَعَلَّ مِنْ أَبْرَزِهَا مَا يَأْتِي:

أَوَّلًا: حَصُولُ كِفَايَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمَتَوَكِّلِ، فَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ كَفَاهُ وَوَقَاهُ،

(١) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٥٦٢).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (وك ل)، (ص ١١٠٢)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١١ / ص ٧٣٤)، (وك ل)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٣١ / ص ٩٦)، (وك ل).

(٣) تنوعت عبارات العلماء في تعريف التَّوَكُّلِ، فعرف بلازمه وثمراته وأسبابه وغيره.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٢١)، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٤٣٦).

(٥) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (١٢٣١).

ويا لها من ثمرة عظيمة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولأنه رتب الحكم على الوصف المناسب له؛ فعلم أن توكله هو سبب كونه حسباله»^(١).

ثانيًا: الوقاية من تسلط الشيطان وكيده، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وجاء في ذكر الخروج من المنزل، «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدَيْتَ وَكُفَيْتَ وَوُقِيتَ، فَتَنَحَّيَ لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟»^(٢).

ثالثًا: التوكل يورث محبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى للعبد، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد عرفنا عظم ثمرات المحبة سابقًا.

رابعًا: التوكل سبيل سعة الأرزاق، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكِّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»^(٣)، قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الحديث أصل في التوكل، وإنه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزق»^(٤).

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية، (م ١ / ص ٨٨).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، أبواب النوم، باب ما يقول إذا خرج من بيته، برقم (٥٠٩٥)،

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب في التوكل على الله، برقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب التوكل واليقين، برقم (٤١٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣١٠).

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٨١١).



خامساً: التوكل يورث المرء قوة العزيمة، ولذلك اقترن العزم بالتوكل في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الصدد: «ولو توكل العبد على الله حقَّ توكله في إزالة جبلٍ من مكانه، وكان مأموراً بإزالته، لأزاله»^(١).

ومما يعين الإنسان على تحقيق التوكل في حياته ما يأتي:

أولاً: العناية بتحقيق التوحيد، وبِقَدْرِ هذا التحقيق يزدادُ التوكلُ على الله، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «على قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإنَّ العبدَ متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفاتُ شعبةً من شُعَبِ قلبه، فنقص من توكله على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بقدر ذهاب تلك الشعبة»^(٢).

ثانياً: معرفة الأسماء والصفات، والتعبد لله بها، وعلى قدر هذه المعرفة يزداد التوكل، والمتدبّر للقرآن يجد اقتران التوكل بأسماء الله وصفاته، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل من كان بالله وصفاته أعلم وأعرف، كان توكله أصحَّ وأقوى»^(٣)، وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا تجلَّى الله عَزَّجَلَّ بصفات الكفاية والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه وحمائمه لهم ومعيته الخاصة لهم؛ انبعث من العبد قوة التوكل عليه،

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٨١).

(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ١٢٠).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ١١٨).

والتفويض إليه، والرضا به»^(١).

ثالثاً: تعزيز الثقة بالله، وحُسن الظن به. والثقةُ بالله مبدأُ التوكل عليه، وتفويضُ الأمر إليه. قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ مَنْ تَوَكَّلَ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ اللهُ هُوَ ثِقَتَهُ»^(٢).



(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٩٩).

(٢) ينظر: التوكل، لابن أبي الدنيا، برقم (١٨٩).



ثم التَّقْوَى فَعَلْكَ مَا أُمِرْتََا كَذَاكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا نُهِيتََا

انتقل الناظم في هذا البيت إلى منزلة التقوى، ولم يزل الأنبياء والصالحون يتواصلون بها، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمر بالتقوى كان عامًّا لجميع الأمم»^(١)، وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ - عن التقوى - : «ما أعلم وصيةً أنفعَ من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها»^(٢).

وكلمة التقوى في اللغة ترجع إلى مادة (وق ي) التي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، يقال: وقيت الشيء أقيه، والوقاية ما يقي الشيء، والاتقاء اتخاذ الوقاية، ويقال: توقّيت الشيء، أي: حذرتُه^(٣).

وأما في الاصطلاح فهو: فعلٌ ما أمر الله، وترك ما نهى الله عنه^(٤)، كما جاء في النّظم، قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»^(٥). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوى: اسمٌ جامعٌ لفعل الطاعات، وترك المنكرات»^(٦).

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ٥ / ص ٤٠٨).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٦٥٣).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١١٠٠)، (وق ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٥ / ص ٤٠٢)، (وق ي).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٣ / ص ١٢٠).

(٥) ينظر: الرسالة التبوكية، لابن القيم، (ص ١٠).

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ١ / ص ٢١٢).

وللتقوى منزلة عظيمة، وثمرات جلية، منها:

أولاً: التقوى أصل الخير وسيله، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي. قَالَ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ؛ فَإِنَّهَا جَمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ»^(١). وكتب رجل من السلف إلى أخيه يوصيه: «أوصيك وأنفسنا بالتقوى؛ فإنها خير زاد الآخرة والأولى»^(٢).

ثانياً: التقوى سبب قبول الأعمال، وقبول العمل هو الأمر الذي شغل أهل الصلاح، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلى رجل يوصيه: «أوصيك بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ الذي لا يَقْبَلُ غَيْرَهَا، ولا يَرْحَمُ إِلَّا أَهْلَهَا، ولا يُثِيبُ إِلَّا عَلَيْهَا، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل»^(٣).

ثالثاً: التقوى من أكثر ما يُدْخِلُ الجنة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبا: ٣١]، وفي الحديث سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «التَّقْوَى وَحُسْنُ الْخُلُقِ»^(٤).

رابعاً: التقوى سبب الأرزاق، وتيسير الأمور، والخروج من المضائق، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٥) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، باب الميم، من اسمه محمد، برقم (٩٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٢٨٦٩).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٦١).

(٣) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٥ / ص ٢٦٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (٤٢٤٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٧٧).



يَحْتَسِبُ» [الطلاق: ٢، ٣]، «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا» [الطلاق: ٤].

خامساً: التقوى سببُ محبة الله للعبد ومعيته وحفظه وتأيده، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» [آل عمران: ٧٦]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»^(١)، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» [البقرة: ١٩٤]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا» [آل عمران: ١٢٠]. قال رجلٌ ليونس بن عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: أوصني. قال: «أوصيك بتقوى الله والإحسان، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»^(٢).

ومن سبل تحقيق التقوى:

أولاً: الدعاء، وسؤال الله التقوى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»^(٣)، وفي الصحيح أيضاً: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»^(٤).

ثانياً: محاسبة النفس، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [الحشر: ١٨]. قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون الرجل من المتقين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٥).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٦١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، برقم (٢٧٢١).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، برقم (٢٧٢٢).



حتى يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة شريكه»^(١).

ثالثاً: طيبُ الكسب، والحرص على الكسب الحلال، قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «طلبُ كسب الحلال من أصولِ الوَرَع، وأساس التقوى»^(٢)، وقال المباركفوري: «أكلُ الحلال رأسُ التقوى كله»^(٣).



(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٤ / ص ١٩).
 (٢) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٦ / ص ٩١).
 (٣) ينظر: تحفة الأحوذى، للمباركفوري، بتصرف، (م ٦ / ص ١٢٠)



والورع التَّركُ لما فيه الضَّرَرُ خوفاً وإخباتاً لخالقِ البشرِ

يذكر الناظم في هذا البيت منزلة الورع، وهي من أجمل ثمار الإيمان، قال طاوس رَحِمَهُ اللهُ: «مَثَلُ الْإِيمَانِ كَشَجَرَةٍ؛ فَأَصْلُهَا الشَّهَادَةُ، وَسَاقُهَا وَوَرَقُهَا كَذَا، وَثَمَرُهَا الْوَرَعُ، وَلَا خَيْرَ فِي شَجَرَةٍ لَا ثَمَرَ لَهَا، وَلَا خَيْرَ فِي إِنْسَانٍ لَا وَرَعَ لَهُ»^(١)، ولذلك كان ميداناً للتعلُّم والتطبيق عند السلف، قال الضحاك رَحِمَهُ اللهُ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَعَلَّمُ بَعْضُنَا مِنْ بَعْضٍ إِلَّا الْوَرَعَ»^(٢).

والورع في اللغة: الكفُّ والانقباض والتحرُّج، يقال: تورَّعَ عن كذا، أي: كفَّ عنه، وتحرَّج منه^(٣).

وأما في الاصطلاح: فهو ترك ما يُخْشَى ضَرَرُهُ في الآخرة، سواءً كان هذا المتروك محرماً أم مشتبهاً أم مُضْواً ربما يقود للمحرَّم، فيتركه خوفاً من الله. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وَأَمَّا الْوَرَعُ فَإِنَّهُ الْإِمْسَاكُ عَمَّا قَدْ يَضُرُّ، فَتَدْخُلُ فِيهِ الْمَحْرَمَاتُ وَالشُّبُهَاتُ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَضُرُّ»^(٤).

والفرق بين الورع والزهد: «أَنَّ الزَّهْدَ تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ، وَالْوَرَعَ تَرْكُ مَا يُخْشَى ضَرَرُهُ فِي الْآخِرَةِ»^(٥). ومن الضوابط النافعة في باب الزهد

(١) ينظر: السنة، لعبد الله بن أحمد، برقم (٦٣٥).

(٢) ينظر: الورع، لابن أبي الدنيا، برقم (٢٦).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٠٨٨)، (ورع)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٨/ ص ٣٨٨)، (ورع).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٦١٥).

(٥) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٧١).

والورع ما قاله ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الواجبات والمستحبات لا يصلح فيها زهد ولا ورع، وأما المحرمات والمكروهات فيصلح فيها الزهد والورع»^(١).

ومن فوائد الورع وثمراته ما يأتي:

أولاً: بالورع يرتقي المرء في درجات العبودية العالية، ومراتبها السامية، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، كُنْ وَرِعًا تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ»^(٢)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «أفضل العباد: التفكر، والورع»^(٣).

ثانياً: الاستبراء والوقاية للدين والعرض، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَلَالُ بَيْنٌ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَعَ بِرَعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ»^(٤).

ثالثاً: الورع من أخير القرب الدينية، ومن أفضل ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ»^(٥)، وقال يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُ اللهُ: «أفضل العمل الورع»^(٦).

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٦١٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الورع والتقوى، برقم (٤٢١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٧٤١).

(٣) ينظر: الورع، لابن أبي الدنيا، (ص ٣٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩).

(٥) أخرجه البزار في مسنده، مسند حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، مطرف عن حذيفة، برقم (٢٩٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦٨).

(٦) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٨١٤٩).



وأما سبلُ تحقيقِ الورعِ فهديدة، منها ما يأتي:

أولاً: تركُ بعض المباحات خشيةً الوقوع في المحرّمات، وهو بابٌ دقيق فيما يترك وما يفعل، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَدَعَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحَرَامِ سِتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ، وَلَا أَحْرَمُهَا»^(١). وقال سفيان بن عيينة: «لا يصيب العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتّى يجعلَ بينه وبين الحرامِ حاجزاً من الحلال، وحتّى يدعَ الإثمَ وما تشابه منه»^(٢). وقال بعضُ السلف: «كُنَّا نَدْعُ سَبْعِينَ أَبَاً مِنَ الْحَلَالِ؛ مَخَافَةً أَنْ نَقَعَ فِي الْحَرَامِ»^(٣).

ثانياً: لزوم السنة والبعّد عن الهوى والبدعة، قال الأوزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ كُنَّا نَتَحَدَّثُ: أَنَّهُ مَا ابْتَدَعَ رَجُلٌ بَدْعَةً إِلَّا سُلِبَ وَرْعُهُ»^(٤). وقال أبو مظفر السمعاني رَضِيَ اللَّهُ فِي ذِمِّهِ: «وَهَلْ رَأَى أَحَدٌ مُتَكَلِّمًا أَذَاهُ نَظَرُهُ وَكَلَامُهُ إِلَى تَقْوَى فِي الدِّينِ، أَوْ وَرْعٍ فِي الْمَعَامَلَاتِ، أَوْ سِدَادٍ فِي الطَّرِيقَةِ، أَوْ زَهْدٍ فِي الدُّنْيَا، أَوْ إِمْسَاكِ عَنْ حَرَامٍ أَوْ شَبْهَةٍ، أَوْ خُشُوعٍ فِي عِبَادَةٍ، أَوْ أَزْدِيَادٍ فِي طَاعَةٍ، أَوْ تَوَرُّعٍ عَنْ مَعْصِيَةٍ، إِلَّا الشَّاذَّ النَّادِرَ»^(٥).

ثالثاً: استحضار لقاء الله، والخوف منه، فمن خاف من الله احتاط لدينه، وعظّم حرّماته، قال يحيى بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْوَرَعُ مِنْ ثَلَاثِ خِصَالٍ: مِنْ عَزِّ النَّفْسِ، وَصِحَّةِ الْيَقِينِ، وَتَوَقُّعِ الْمَوْتِ»^(٦). وقال أبو عبد الله الأنطاكي: «الْخَوْفُ يُكَسِبُ الْوَرْعَ»^(٧).



(١) ينظر: الورع، للإمام أحمد، (ص ٥٩).

(٢) المرجع السابق، (ص ٥٩).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٢).

(٤) ينظر: ذم الكلام وأهله، للهروي، (م ٥ / ص ١٢٧).

(٥) ينظر: الانتصار لأصحاب الحديث، لأبي المظفر السمعاني، (ص ٦٥).

(٦) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ١٠ / ص ٦٧).

(٧) ينظر: المصدر السابق، (م ٩ / ص ٢٩٠).

وإن تُرد معرفة الخُشوع فالذلُّ لله مع الخُضوع

ذكر الناظم في هذا البيت منزلة الخُشوع، وهي من صفات النبيين، وعبادات الصّديقين، ومنازل الصالحين، ودعوة الله للمؤمنين، قال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال الله تبارك وتعالى عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تبارك وتعالى عن أهل العلم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]. والخُشوع حريٌّ بالعناية؛ لأنه أول ما يُفقد من هذه الأمة، فعن شداد بن أوس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ»^(١).

والخُشوع في اللغة يدور معناه على التّطامن والانخفاض والخضوع والتواضع، وفي معجم مقاييس اللغة: «الخاء والشين والعين أصل واحد يدلُّ على التّطامن، يقال: خُشع، إذا تّطامنَ وطأ طأ رأسه، يَخْشَعُ خُشُوعًا»^(٢).

وأما الخُشوع في الاصطلاح: فهو قيام القلب بين يدي الربّ بالخضوع

(١) أخرجه الطبراني في معجمه، باب الشين، من اسمه شداد، شداد بن أوس الأنصاري، ما أسند شداد، الحسن بن أبي الحسن عن شداد بن أوس، برقم (٧١٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٥٤٣).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣١٦)، (خ ش ع)، وقريب منه لسان العرب، لابن منظور، (م ٨ / ص ٧١).



والذل^(١)، وهو يجمع معاني المحبة والتعظيم والذل والانكسار والسكينة^(٢). قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وأصل الخشوع: هَوْلُ الْقَلْبِ وَرِقَّتُهُ وَسُكُونُهُ، وَخُضُوعُهُ وَانْكَسَارُهُ وَحُرْقَتُهُ، فَإِذَا خَشَعَ الْقَلْبُ، تَبِعَهُ خُشُوعُ جَمِيعِ الْجَوَارِحِ وَالْأَعْضَاءِ»^(٣).

وللخشوع ثمرات وفوائد، وفضائل وعوائد، منها ما يأتي:

أولاً: الخشوع سبب مغفرة الذنوب وتكفير الخطايا، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى في جملة صفات عظيمة: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾، ثم جعل الجزاء والثواب المغفرة: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وعن الصلاة الخاشعة قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ تَخَضَّرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يَأْتِ بِكَبِيرَةٍ، وَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ»^(٤).

ثانياً: الخشوع من أعظم أسباب الفلاح، ولذلك جاء في صدارة صفات أهل الفلاح، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، والفلاح معنى يجمع للمرء خير الدنيا والآخرة وسعادتهما.

ثالثاً: الخشوع يخفف على العباد الصلاة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالصلاة كبيرة وشاقة إلا على أهل الخشوع، فإنها سهلة خفيفة عليهم، بل يجدون

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٢١).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٧ / ص ٢٨)، و مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٢٢).

(٣) ينظر: الذل والانكسار، لابن رجب، (ص ٣٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، برقم (٢٢٨).



لذتهم وراحتهم وطمأنينتهم في الصلاة.

ومن سبل تحقيق هذه المنزلة - عمومًا دون خصوص الصلاة - ما يأتي:

أولاً: الدعاء والتضرع بطلب الخشوع، والاستعاذة من القلوب التي لا تخشع، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»^(١)، وفي الدعاء المأثور أيضًا: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصْبِي»^(٢).

ثانيًا: الحرص على العلم النافع، لا سيما العلم بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته، فمن كان بالله أعرفَ كان له أخشع، والعلم النافع إذا باشر القلوب أحدث لها السكينة والخشية والإحبات لله، والتواضع والانكسار له^(٣)، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعٌ»^(٤)، وقال ابن رجب: «وتفاوت القلوب في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع»^(٥).

ثالثًا: الإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والذكر إن خالط القلوب أحدث فيها رقة وخشوعًا، لذلك قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، برقم (٧٢٧٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١).

(٣) ينظر: الذل والانكسار، لابن رجب، (ص ١١).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ، برقم (٨٢٢).

(٥) ينظر: الذل والانكسار، لابن رجب، (ص ٢٥).



لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴿[الحديد: ١٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَثَرِ أَعْظَمِ الذِّكْرِ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَيْضًا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].





ثم عتاب القلب فالمحاسبة خوفاً من العذاب والمعاتبه

انتقل الناظم إلى عبادة قلبية مهمة، ألا وهي منزلة المحاسبة، وهي صفة المؤمن في سيره إلى الله تبارك وتعالى، فهو يحاسب نفسه ويعاتبها على تفريطها، ويحثها على تجديد السير. وقد جاء عن الحسن البصري رحمه الله في قول الله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ أنه قال: «لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه. ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟»^(١). وللمحاسبة أثر عظيم في صلاح القلب، قال ابن القيم رحمه الله: «والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها»^(٢). والمحاسبة مصدر حاسب يحاسب، وهي مُفاعلة من الحساب، بمعنى العدّ، تقول: حسبت الشيء أحسبه حسباً وحسباناً^(٣)، وفي الاصطلاح هو: النظر في أعمال النفس ومعاتبتها على التقصير، ثم استدراك الخطيئات، والمُضي في الطاعات، قال الماوردي رحمه الله: «محاسبة النفس أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذموماً استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل»^(٤).

(١) ينظر: محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا، (ص ٢٤).

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٠١).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٦٣)، (ح س ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٣١٣).

(٤) ينظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، (ص ٣٤٢).



وللمحاسبة ثمرات وفضائل نذكر منها ما يأتي:

أولاً: أن المحاسبة علامة التقوى، ومن لوازمها، ولذلك جاءت معها في سياق الآية في البدء والختم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة شريكه»^(١).

ثانياً: حفظ النفس من نزغات الشيطان ومداخله، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والتبصُّر بلم الشيطان والانقطاع عنه والتوبة لا يحصل إلا بمحاسبة النفس ومعاتبها.

ثالثاً: الانشغال بعيوب النفس عن عيوب الناس، فمن حاسب نفسه، ونظر في عيوبها؛ لم يجد وقتاً لعيوب غيره. قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أحسب أحداً يفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه، ولو اهتم بنفسه ما تفرغ لعيوب أحد ولا ذمّه»^(٢)، وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يستحق أحدٌ حقيقة الإيمان حتى لا يعيب الناس بعيب هو فيه، ولا يأمرُ بإصلاح عيوبهم حتى يبدأ بصلاح ذلك من نفسه، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيباً إلا وجد في نفسه عيباً آخر، فينبغي له أن يصلحه، فإذا فعل ذلك شغل بخاصة نفسه عن عيب غيره»^(٣).

(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٤ / ص ٨٩).

(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٧٥٦٦).

(٣) ينظر: المجالسة وجواهر العلم، للدينوري، (ص ٤٠٨).

وأما السبيل لتحقيق منزلة المحاسبة ففي جملة أمور منها:

أولاً: أن يتذكر المرء أنَّ حساب النفس في الدنيا أهونُ من الحساب في يوم القيامة، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، فإنه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، وتجهّزوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]»^(١). وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة»^(٢).

ثانياً: التفكير في الجنة ونعيمها، والشوق إلى لقاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والنظر إلى وجهه الكريم، وإدراك أنَّ المحاسبة من أعظم ما يُعين على ذلك ويوصل إليه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويعينه عليها أيضاً: معرفته أنَّ ربح هذه التجارة: سُكْنَى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخسارتها: دخول النار، والحجاب عن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا تيقَّن هذا هان عليه الحساب اليوم»^(٣).

ثالثاً: التأمل في أحوال السلف، وكثرة خلوتهم بالنفس للمحاسبة، ودعوتهم لهذه العبادة، قال مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها يتذكر ذنوبه يستغفر منها»^(٤)، وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عرضت عملي على قولي إلا خشيت أن أكون مُكذَّباً»^(٥)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة همته»^(٦).

(١) ينظر: الزهد، لابن المبارك، (ص ٣٠٦).

(٢) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٢ / ص ١٥٧).

(٣) ينظر: إغاثة اللفهان، لابن القيم، (م ١ / ص ٨٠).

(٤) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ٢ / ص ٦٣٢).

(٥) ينظر: المرجع السابق، (م ٢ / ص ٦٧٣).

(٦) ينظر: محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا، (ص ٦).



وَاسْتَحْضِرَنَّ أَنَّ الرَّقِيبَ يَعْلَمُ مَا يُعْلِنُ الْعَبْدُ وَمَا يُكْتَمُ

يذكر الناظم في هذا البيت منزلة المراقبة، وهي يريد الأعمال القلبية المختلفة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في معرض كلامه عن السكينة: «سببها: استيلاء مراقبة العبد لربه جلَّ في علاه، حتى كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة، والخضوع والخشوع، والخوف والرجاء: ما لا يحصل بدونها؛ فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامها به»^(١).

والمراقبة في اللغة مصدر قولهم: راقب مراقبة، وهو مأخوذ من مادة (رَقَبَ) التي تدل على الانتصاب لمراعاة شيء، ومن ذلك الرقيب، وهو الحافظ، والمَرْقَبُ المكان العالي يقف عليه الناظر، ومن ذلك اشتقاق الرقبة؛ لأنها منتصبة، ولأن الناظر لا بد أن ينتصب نظره^(٢).

وأما المراقبة في الاصطلاح فهو: دوام علم العبد وتيقُّنه باطِّلاع الحق عَزَّجَلَّ على ظاهره وباطنه، وهي التعبد باسمه: الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير^(٣).

(١) ينظر: إعلام الموقعين، لابن القيم، (م ٦ / ص ١١١).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤١٧)، (رق ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٤٢٤)، (رق ب).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٦٥).

وللمراقبة ثمرات كريمة، وفضائل منيقة، منها ما يأتي:

أولاً: الفوز بنعيم الجنة، فمن راقب الله، وحفظه بالغيب؛ نال الموعد الكريم قي قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿[ق: ٣١ - ٣٥].

ثانياً: تحقيق مقام الإحسان في عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ففي حديث جبريل المشهور لما سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإحسان؛ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (١)، وفي وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى»، وقوله: «اعبد الله كأنك تراه» (٢)؛ فهذا مقام المراقبة، الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان (٣).

ثالثاً: الفوز بظل العرش يوم القيامة، وحينما ذكر نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ عدّ منهم: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» (٤)، فاستحضاره نظر الله ومراقبته حال بينه وبين الشهوات.

-
- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام، برقم (٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٨).
- (٢) أخرجه الطبراني في معجمه، باب الميم، من اسمه معاذ، معاذ بن جبل الأنصاري، ومن روى عنه من أهل البصرة، المراسيل عن معاذ بن جبل، برقم (٣٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٤٧٥).
- (٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢١٧).
- (٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، برقم (١٤٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١).



ومن سبل تحقيق هذه المنزلة ما يلي:

أولاً: استحضار الإخلاص في العمل، والنظر في الباعث، يقول ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «ينبغي أن يراقب الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل يحركه عليه هوى النفس، أو المحرك له هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى خاصة؟ فإن كان الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص. قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همّه، فإن كان لله مضي، وإن كان لغيره تأخر، فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهو أن يكون مخلصاً فيها»^(١).

ثانياً: الإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، لا سيما ما تواطأ عليه القلب واللسان من الذكر، وذكر ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ في ثمرات الذكر: «أنه يورث المراقبة، حتى يدخل في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان»^(٢).

ثالثاً: استحضار أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الحسنى التي لها صلة بعبودية المراقبة، مثل اسم الله: الرقيب، والشهيد، والحفيظ، والمحيط، والعليم، والسميع، والبصير، فكل هذه الأسماء فيها معاني اطلاع الله على جميع أعمال الخلق ظاهرها وباطنها، صغيرها وكبيرها، ومتى ما استحضرها العبد ازداد في الطاعات، وابتعد عن المحرمات.



(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (ص ٣٩٢).

(٢) ينظر: الواابل الصيب، لابن القيم، (ص ٩٥).



تَفَكَّرْ: تأمَّلْ الدلائل والشكر قُلْ ذِكْرُكَ للفضائل

ذكر الناظم في هذا البيت منزلتين، الأولى: منزلة التفكير، والثانية: منزلة الشكر، والتفكير من أفضل العبوديات، ومن أجل المقامات. قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللهُ: «سألنا أُمَّ الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قلنا: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكير والاعتبار»^(١)، وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «الفكرة في نِعَمِ الله أفضل العبادة»^(٢)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والتذكر والتفكير منزلان يُثمران أنواع المعارف، وحقائق الإيمان والإحسان»^(٣).

والتفكير في اللغة: التأمل والنظر، وتردّد القلب في الشيء، يقال: تفكّر إذا ردّد قلبه معتبراً^(٤).

والتفكير في الاصطلاح: تردّد القلب بالنظر والتأمل في الدلائل لطلب المعاني^(٥).

والتفكير ثمار يانعة، وفضائل ساطعة، منها ما يأتي:

أولاً: أهل التفكير هم أصحاب العقول الذكية، والقلوب الواعية، الذين يقودهم التفكير في خلق الله إلى تعظيم الله وتمجيده، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي

(١) ينظر: الزهد، لابن المبارك، برقم (٢٨٦)، والزهد، لأحمد، برقم (١٣٥).

(٢) الحلية، لأبي نعيم، (م ٥ / ص ٣١٤).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٤١).

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٨٢٥)، (ف ك ر)، ولسان العرب، لابن منظور،

(م ٥ / ص ٦٥)، (ف ك ر).

(٥) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٤ / ص ٣٦٧)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٤ / ص ٣٩).



خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ثانيًا: المتفكرون في الدلائل هم الذين يتفكرون بالآيات والأمثال والعظات، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ثالثًا: التفكير يقود للعمل واغتنام اللحظات، والتوبة والبعد عن الغفلات، قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ تَفَكَّرَ فِي خَلْقِ نَفْسِهِ، عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّمَا خُلِقَ وَلِيَنَّتْ مَفَاصِلُهُ لِلْعِبَادَةِ»^(١)، وقال وهب رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا طَالَتْ فِكْرَةُ امْرِئٍ قَطٍ إِلَّا فَهَمٌ، وَمَا فَهَمٌ امْرِئٍ قَطٍ إِلَّا عِلْمٌ، وَمَا عِلْمٌ امْرِئٍ قَطٍ إِلَّا عَمَلٌ»^(٢)، وقال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «التفكير مرآة تريك حسناتك وسيئاتك»^(٣). يقول ابن القيم: «وهذا الفكر يُثَمِّر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخسستها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قِصَرِ العمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجِدَّ والاجتهاد، وبذل الوسع في

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٤ / ص ٢٩٧).

(٢) ينظر: العظيمة، لأبي الشيخ، (م ١ / ص ٣١٣).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٢٢٧).



اغتنام الوقت»^(١). وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «والتَّفَكُّرُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ، وَيَنْشَأُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ؛ كَالْخَشْيَةِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالرَّجَاءِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا التَّفَكُّرَ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الْأَعْمَالِ»^(٢).

ومن السبل التي توصل إلى هذه العبادة ما يأتي:

أولاً: البعد عن المعاصي وصوارف القلب المُشغلة، وفي قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ آيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال بعض العلماء: أي أَمْنَعْ قُلُوبَهُمُ التَّفَكُّرَ. وعن أبي العالية الرياحي رَحِمَهُ اللهُ: «أنه سأل رجل: ما يفتح الفكر؟ قال اجتماع الهم، فإنه إذا همَّ فكر، وإذا فكر أبصر، وإذا أبصر اعتبر»^(٣). قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «فإذا قطع العبد شُغْلَ جوارحه عن الدنيا في وقت فكرته وتقيده، ومنع قلبه من التشتت في ميادين الأمور الدنيوية؛ اجتمع همُّه، وحضر عقله»^(٤).

ثانياً: الخلوة بالنفس للتفكير والتأمل، وقد كان نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخلو في الغار قبل نزول الوحي. قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ: الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٩٨).

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٩١).

(٣) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ١٠ / ص ١٤٣).

(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٢ / ص ٤٧٥).



يَتَحَنَّثُ فِيهِ»^(١). قال الخطّابي: «حَبَّبَ العزلة إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لَأَنَّ معها فراغَ القلب، وهي معينة على التفكير»^(٢)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «طول الوحدة أتمُّ للفكرة، وطول الفكرة دليلٌ على طريق الجنة»^(٣).

ثالثاً: زيارة المقابر، واستحضار مشاهد الآخرة، وتقليبُ النظر فيها؛ مما يحث الإنسان على التفكير، ويقوده للعمل الصالح. قال يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان - وصلينا العشاء الآخرة - ناوِلْنِي المِطْهَرَةَ، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره على خَدِّه، وَنِمْتُ، فاستيقظت وقد طلع الفجر؛ فإذا المِطْهَرَةُ بيمينه كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناوِلْتَنِي المِطْهَرَةَ أَتَفَكَّرُ في الآخرة حتى الساعة»^(٤)، وقال ابن المبارك لبعض أصحابه، وقد رآه مفكِّراً: «أَيْنَ بَلَغْتَ؟ قال: الصراط»^(٥)، وقال مغيث بن الأسود رَحِمَهُ اللَّهُ: «زوروا القبور تفكَّركم»^(٦).

وأما منزلة الشكر فهي من قواعد الدين، مع ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولذلك جُمِعَتْ مَعاً في النصوص، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَل، وفيه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، برقم (٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (١٦٠).

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ٢ / ص ٣٤٨).

(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٣٩).

(٤) ينظر: تاريخ بغداد، للخطيب، (م ٩ / ص ١٥٧).

(٥) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٣٩).

(٦) ينظر: أهوال القبور، لابن رجب، (ص ١٥٤).

وَشُكْرُكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

والشكر في اللغة: الثناء والامتلاء والغزر، ويقال: حقيقةُ الشكر الرضا باليسير، يقولون: فرسٌ شكورٌ، إذا كفاهُ لِسْمَنِهِ العَلْفُ القليل^(٢).

والشكر في الاصطلاح: ظهورُ أثرِ نعمةِ الله على لسان عبده ثناءً واعتراضاً، وعلى قلبه شهوداً ومحبةً، وعلى جوارحه انقياداً وطاعةً^(٣)، قال الفراء: «الشكر: معرفةُ الإحسان، والتحدثُ به»^(٤).

وفي الفرق بين الحمد والشكر كلامٌ طويل خلاصته ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الشكرُ أعمُّ من جهةِ أنواعِهِ وأسبابِهِ، وأخصُّ من جهةِ متعلقاتِهِ، والحمدُ أعمُّ من جهةِ المتعلقاتِ، وأخصُّ من جهةِ الأسبابِ»^(٥)، «والمدحُ أعمُّ من الحمد؛ لأنه يكون للحَيِّ وللميت وللجمادِ أيضاً، كما يُمدح الطعامُ والمالُ ونحو ذلك»^(٦).

وعَقَدَ أهل العلم المفاضلةَ بين الغنيِّ الشاكرِ والفقيرِ الصابرِ، فقدَّم بعضهم الصبر، وبعضهم الشكر، وتوسَّطَ البعضُ بأنه ليس لأحدهما فضيلةٌ إلا بالتقوى، وقد يكون صبر الغني أكملَ من صبر الفقير، كما قد يكون شكر

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، برقم (١٥٢٢)، والنسائي في سننه، كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، برقم (١٣٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٥٩٦).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٥٣٤)، (ش ك ر).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٤٤).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ٢ / ص ١٦٦).

(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٤٦).

(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ١ / ص ١٢٨).



الفقير أكمل، فأفضلهما أتقاهما وأعظمهما شكرًا وصبراً^(١).

وأما ثمرات الشكر وفوائده فمنها ما يأتي:

أولاً: الشكر أساس بقاء النعم وزيادتها، فالنعم تَعْظُم وتكثر وتتوالى وتزيد بقدر شكر العبد لربه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «قِيدُوا النعم بشكر الله»^(٢)، ويقول الربيع بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ اللَّهَ ذَاكِرٌ مَنْ ذَكَرَهُ، وزائدٌ مَنْ شَكَرَهُ، ومُعَذِّبٌ مَنْ كَفَرَهُ»^(٣)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر، والشكر مادة زيادته، وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد»^(٤).

ثانياً: الشكر سبيل النجاة، فمن حقق الإيمان والشكر جُزي بالأمن من الهلكة، وحصل له النجاة والسلامة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن قوم لوط: ﴿كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾^(٥) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ^(٦) نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ [القمر: ٣٣ - ٣٥]. قال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني لأرجو ألا يهلك عبدٌ بين نعمة يحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه»^(٧)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنْ اللَّهُ لَيُمَتِّعْ بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشكر: قَلَبَهَا عَلَيْهِمْ عَذَابًا»^(٨)، وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

- (١) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٥٧٧)، وعدة الصابرين، لابن القيم، (ص ٢٩٧).
- (٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٤٥٤٦).
- (٣) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م ٢ / ص ٣٩).
- (٤) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ٣٤٧).
- (٥) ينظر: الشكر، لابن أبي الدنيا، (ص ٨٨).
- (٦) ينظر: المصدر السابق، (ص ١٧).



«إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ لَا يَعْذِبُ شَاكِرًا، وَلَا مُؤْمِنًا»^(١).

ثالثًا: الشكر بريدٌ إلى مرضاة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرْضَى لعباده الشكر، ولا يَرْضَى لهم الكفر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، والله يَرْضَى عن العبد يأكل ويشرب فيحمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(٢).

ومن سبل تحقيق هذه المنزلة ما يأتي:

أولًا: النظر في نعم الله الكثيرة، فنعم الله متتابعة لا تُحصى، ومتوالية لا تُستقصى، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فتذكر النعم يَسْتَحِثُّ العبدَ على شكرها، يقول الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكرُ النعمة سببٌ باعِثٌ على شكرها»^(٣)، وما أَلطف ما قاله بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا بن آدم، إذا أردت أن تعلم قدرَ ما أنعم الله عليك؛ فغمض عينيك»^(٤).

ثانيًا: النظر إلى مَنْ هو دونك، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ»^(٥)، ولقد فاوت الله بين الخلق لتظهر مثل هذه العبوديات، يقول ابن القيم

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م ٤ / ص ٣٣٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بعد الأكل والشرب، برقم (٢٧٣٤).

(٣) ينظر: فتح القدير، للشوكاني، (م ٢ / ص ٣١٧).

(٤) ينظر: الشكر، لابن أبي الدنيا، (ص ١٨٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٣).



رَحْمَةُ اللَّهِ: «فالشكر أحب شيء إليه، وأعظم ثواباً، وله خَلق الخلق، وأنزل الكتب، وشرع الشرائع، وذلك يستلزم خلق الأسباب التي يكون الشكر بها أكمل، ومن جملتها: أن فاوتَ بين عبادِهِ في صفاتهم الظاهرة والباطنة: في خلقهم، وأخلاقهم، وأديانهم، وأرزاقهم، ومعاشهم، وآجالهم، فإذا رأى المعافى المبتلى، والغنيّ الفقير، والمؤمنُ الكافر، عَظُم شكرُهُ لله، وعرف قدر نعمته عليه، وما خصَّه به، وفُضِّل به على غيره، فازداد شكراً، وخضوعاً، واعترافاً بالنعمة»^(١).

ثالثاً: سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى الإعانة على الشكر، كما مضى معنا في وصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(٢).



(١) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم، (ص ٢٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، برقم (١٥٢٢)، والنسائي في سننه، كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، برقم (١٣٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٥٩٦).

ثُمَّ سُكُونِ النَّفْسِ إِنْ حَانَ الْقَضَا وَحَبْسُهَا عَنْ جَزَعِ ذَاكَ الرِّضَا

ذكر الناظم في هذا البيت منزلة الرضا، وهي روحُ العبادة، وعنوانُ السعادة، ونبراسُ الكفاية، قال غيلان بن جرير رَحِمَهُ اللهُ: «من أعطي الرضا والتوكل والتفويض فقد كُفِيَ»^(١)، وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في معرض الحديث عن الانتقال من درجة الصبر إلى الرضا: «وإن ارتقى إلى الرضا رأى أنَّ الرضا جنةُ الدنيا، ومستراحُ العابدين، وبابُ الله الأعظم»^(٢)، وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الرضا آخذ بزام مقامات الدين كلها، وهو رُوحها وحياتها، فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة، وصحة المُحب، ودليل الصدق، وروح الشكر ودليله»^(٣)، وقال ابن رجب: «فَأَمَّا الرِّضَا بِالْقَضَاءِ فَهُوَ مِنْ عِلَامَاتِ الْمُخْبِتِينَ الصَّادِقِينَ فِي الْمَحَبَّةِ، فَمَتَى امْتَلَأَتِ الْقُلُوبُ بِمَحَبَةِ مَوْلَاهَا رَضِيَتْ بِكُلِّ مَا يَقْضِيهِ عَلَيْهَا مِنْ مَوْلَمٍ»^(٤).

والرضا في اللغة: مصدر ضد السخط، تقول: رضي يرضى رضىً، وهو راضٍ، ومفعوله مَرْضِيٌّ عنه^(٥).

(١) ينظر: الرضا عن الله، لابن أبي الدنيا، (ص ١٠١).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٧ / ص ٢٧).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١١٧).

(٤) ينظر: شرح حديث (ليكن اللهم ليكن)، لابن رجب، (ص ٥٤).

(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤٠٦)، (رض ي)، وتهذيب اللغة،

للأزهري، (م ١٢ / ص ٦٤)، (رض ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٥ / ص ٢٣٥)، (رض ي).



والرِّضا اصطلاحًا: سكونُ النفس، وارتفاعُ الجَزَعِ عندَ القضاء^(١)، فالرضا فيه انشراح الصدر وسعته بالقضاء والأحكام، والراضي لا يتمنى غيرَ حاله التي هو عليها^(٢).

وأما ثمرات الرضا فهي كثيرة، وقد فصلها وحرَّرها ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في (مدارج السالكين)، منها ما يأتي:

أولًا: جزاء الرضا رضا الرب عن العبد، ورضوان الله عن العبد من الغايات العظيمة، ومن المِنَّنِ التي يَتَفَضَّلُ الربُّ بها على أهل الجنة كما في الصحيح، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٣)، فمن حقق الرضا نال الرضا، والجزاء من جنس العمل، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»^(٤).

ثانيًا: ذوق طعم الإيمان، فلإيمان حلاوة وطعمٌ عجيب، ولذَّةٌ يجدها

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٧٧)، والتوكل على الله، لابن أبي الدنيا، (ص ٤٦)، وفتح الباري، لابن حجر، (م ١١ / ص ١٨٧).

(٢) ينظر: الرضا عن الله، لابن أبي الدنيا، (ص ٢٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الصبر على البلاء، برقم (٢٣٩٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٢٢٠).

الصادق مع ربه، ومن جملة ما يحقق ذلك الرضا بالله ربًّا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»^(١).

ثالثًا: مغفرة الذنوب، فَإِنْ تَجَاوَزَ اللَّهُ وَسْتَرَهُ عَلَى الْعَبْدِ يَتَحَقَّقُ بِالرِّضَا بِاللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»^(٢).

ومن أسباب الوصول لمنزلة الرضا ما يأتي:

أولًا: دعاء الله أَنْ يَرْزُقَهُ الرِّضَا، ومن ذلك الدعاء العظيم الذي علَّمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، «أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَلَذَّةَ نَظَرٍ إِلَى وَجْهِكَ، وَشَوْقًا إِلَى لِقَائِكَ، مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(٣).

ثانيًا: التعرف على معاني صفات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى اللطيف العليم الحكيم الرحيم، فَإِنْ ذَلِكَ يُوْرِثُ الطَّمَأْنِينَةَ وَالرِّضَا؛ حَيْثُ يَدْرِكُ أَنْ أَفْعَالِ اللَّهِ لَهَا حِكْمٌ بَلِيغٌ، وَمَقَاصِدُ دَقِيقَةٌ، قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَحَقُّ النَّاسِ بِالرِّضَا عَنْ اللَّهِ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ»^(٤)، وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِنْ أَيْنِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، برقم (٣٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، برقم (٣٨٦).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حديث زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٢٠٦٩)، وصححه الألباني في ظلال الجنة، برقم (٤٢٦).

(٤) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٨ / ص ١٠٤).



أتى قلة الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله^(١).

ثالثاً: الثقة بالله وحسن تديره، واعتقاد أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه؛ لأنَّ العبد لا يعرف مصلحة نفسه من كل وجه، بل كثير من اختيارات العبد في عكس مصلحته، واختيارات الرب فيها مصالح العباد وإن كرهها العبد في الظاهر ولم يعرف أسبابها^(٢)، قال تبارك وتعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].



(١) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٣٦ / ص ٣٣٣).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٤٣)، ومدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٧٥).



وحبسها أيضًا إذا بُليتَا كفاً ومنعاً فاصطرِبْ جُزيتَا

يذكر الناظم في هذا البيت منزلة الصبر، والصبر كنز المهاجر إلى ربه، وزاد المسافر إلى الآخرة، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»^(١)، وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّبْرُ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْخَيْرِ، لَا يُعْطِيهِ اللَّهُ إِلَّا لِعَبْدٍ كَرِيمٍ عَلَيْهِ»^(٢)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالنَّفْسُ مُطِئَةُ الْعَبْدِ الَّتِي يَسِيرُ عَلَيْهَا إِلَى الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، وَالصَّبْرُ لَهَا بِمَنْزِلَةِ الْخِطَامِ وَالزَّمَامِ لِلْمُطِئَةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُطِئَةِ خِطَامٌ وَلَا زِمَامٌ شَرَدَتْ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ»^(٣)، وقال ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّبْرُ جِمَاعُ الْأَمْرِ، وَنِظَامُ الْحَزْمِ، وَدَعَامَةُ الْعَقْلِ، وَبَذْرُ الْخَيْرِ، وَحِيلَةُ مَنْ لَا حِيلَةَ لَهُ»^(٤).

والصبر في اللغة هو الحبس، يقال: صَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى ذَلِكَ الْأَمْرِ، أَيِ حَبَسْتُهَا، وَالْمَصْبُورَةُ: الْمَحْبُوسَةُ عَلَى الْمَوْتِ، وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ شَيْءٍ مِنَ الدَّوَابِّ صَبْرًا، وَالصَّبْرُ: نَقِيضُ الْجَزَعِ، وَالتَّصَبُّرُ: تَكْلُفُ الصَّبْرِ^(٥).

والصبر اصطلاحًا: منع النفس عن الشهوات، وحبسها على مكابدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، (م ٨ / ص ٩٩).

(٢) ينظر: الصبر، لابن أبي الدنيا، (ص ١٦).

(٣) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ٢٥).

(٤) ينظر: روضة العقلاء، لابن حبان، (ص ١٦١).

(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٥٨٤)، (ص ب ر)، وتاج العروس،

للزبيدي، (م ٢ / ٢٧٣)، (ص ب ر)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٤ / ص ٤٣٨)،

(ص ب ر).



الطاعات والبليات، فالصبر فيه شقان: شقُّ الكفِّ والمنع للنفس عن الهوى والمعصية، والشقُّ الثاني حبس النفس على ما أمر به من طاعة الله، وحبسها على حسن المقام مع البلاء، وهي أنواع الصبر الثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله^(١).

وأما ثمرات الصبر فهي كثيرة، وفضائله غزيرة، منها ما يأتي:

أولاً: الصبر طريق الجنة، ولا شك أنها من أعظم المكاسب، وأسمى المطالب، وأعلى المرباح، فمن وطَّن نفسه على الصبر بأنواعه نال الموعود الكريم، قال تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ»^(٢).

ثانياً: بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين، فلا يبلغ المرء رُتَبَ الإمامة في الدين ومحلَّ الاقتداء إلا بعد الصبر واليقين، قال تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. قال ابن القيم رحمه الله: «فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر بلا مركب»^(٣).

ثالثاً: بالصبر ينال المؤمن محبة الله ومعيته، ومن نال المحبة والمعية

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٥٧)، وجامع البيان، للطبري، (م ٢ / ص ١١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب فضل من ذهب بصره، برقم (٥٦٥٣).

(٣) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٢٢٠).



فقد ظفر؛ لأنَّ معه القوَّة التي لا تُغَلَّب، والعزة التي لا تُقهر، ومعه التسديد والرعاية، والتأييد والكفاية، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

رابعاً: بالصبر تُغْفَر الذنوب وتتضاعف الأجور، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]، قال سليمان بن القاسم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمر»^(١)، وقال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس يثوزن لهم، ولا يُكال لهم، إنما يُغْرَف لهم غرفاً»^(٢).

خامساً: حصول الظفر، والأمن من كيد العدو، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضْرِبْكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وفي الحديث: «وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»^(٣)، قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أصل الصبر الحزم، وثمرته الظفر»^(٤).

(١) ينظر: ذم الهوى، للهروي، (ص ٦٠).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٤ / ص ٤٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٢٨٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٣٨٢).

(٤) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٥١ / ص ٤٠٨).



ومما يعين على تحقيق الصبر أمور، منها ما يلي:

أولاً: معرفة جزاء الصبر، الذي أشرنا إلى قطوف منه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿[العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرْصَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ»^(١)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ملاحظة حسن العاقبة تُعين على الصبر»^(٢).

ثانياً: الاستعانة بالله، والتضرعُ إليه، وسؤاله العونَ على الصبر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخبارٌ بأنَّ ذلك - أي الصبر - لا يُنال إلا بمشيئة الله، وإعانتِهِ، وحولِهِ، وقُوَّتِهِ»^(٣).

ثالثاً: استحضار أنَّ الصبرَ عاقبته الفرَجُ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَمَنْ صَبَرَ واحتسب كان التفريجُ قريباً منه، وانظر إلى صبر الأنبياء والصالحين، وكيف كان الفرَجُ بعد حين، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من رحمته أن جعل مع كل عسرٍ يسرين، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿[الشرح: ٥، ٦]، والمرء في دار امتحان، والمصائب تَمْتَحِنُ صبر الإنسان، لكنَّ البلاء مؤقَّت، والفرج قادم.



(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم

(٢٤٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣٤٠٤).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٦٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ٥٩٣).

وغيره؛ حمية للشرع ثم الحياء باعث للمرعي
وكل ما قبّحه الشرع فذر والعرف إن وافق شرعاً يُعتبر

يشير الناظم في هذين البيتين إلى منزلتين من منازل القلوب، وهما: الغيرة والحياء، والغيرة كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «والدين كله من هذه الغيرة، بل الغيرة هي الدين»^(١)، وقال أيضاً: «وأشرف الناس وأعلاهم همة أشدهم غيرة على نفسه، وخاصته، وعموم الناس»^(٢).

والغيرة لغة: مصدر من قولك: غار الرجل على أهله، والمرأة على بعلها، تغار غيرةً وغيرًا وغارًا وغيارًا، والغيرة هي الحمية والأنفة^(٣).

والغيرة في الاصطلاح العام: كراهة الرجل أن يشاركه غيره فيما هو حقه^(٤)، وذكر الرجال هنا على سبيل التمثيل، وإلا فالغيرة غريزة في الرجال والنساء، وأما الغيرة في الشرع فهي الحمية والغضب لشرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كالغيرة على حدود الله وحرماته إذا انتهكت^(٥).

(١) ينظر: روضة المحبين، لابن القيم، (ص ٤١١).

(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ١٦٣).

(٣) ينظر: مختار الصحاح، للرازي، (م ٢ / ص ٧٧٦)، (غ ي ر)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٥ / ص ٣٤)، (غ ي ر)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٢٠ / ص ٥٣١)، (غ ي ر).

(٤) ينظر: التعريفات للجرجاني، (ص ١٦٣)، والكليات، للكفوي، (ص ٦٧١).

(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ٤٣)، والفوائد، لابن القيم، (ص ٤٨ - ٤٩)، وروضة المحبين، لابن القيم (ص ٤١١).

والغيرة ثمرات وفوائد منها ما يأتي:

أولاً: حفظ حدود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وتعظيم الشعائر، والبعد عن المحرمات، فالغيرة باعثٌ قلبي على اجتناب ما يُغضب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ومن غيرة الله أنه حَرَّمَ الفواحش، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ»^(١)، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالغيرة تُحمي القلب، فتحمي له الجوارح، فتدفع السوء والفواحش، وعدم الغيرة يُميت القلب، فتموت الجوارح، فلا يبقى عندها دفعُ البتة»^(٢).

ثانياً: الغيرة صفة من صفات المؤمنين، وعلامة على قوة الدين، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ»^(٣).

ثالثاً: الغيرة المنضبطة في المؤمن صفةٌ يحبها الله، وهي الغيرة التي تكون في ريبة وعند وجود أسبابها، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْ الْخِيَلَاءِ مَا يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ...»^(٤)، وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالغيرة في الريبة: نحو أن يغار الرجل على محارمه إذا رأى منكم فعلاً

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، برقم (٥٢٢٠).

(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ١٨٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب غيرة الله تَعَالَى وتحريم الفواحش، برقم (٢٧٦١).

(٤) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، برقم (٢٥٥٧)،

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٢٢١).

محرمًا، فإنَّ الغيرةَ في ذلك ونحوه مما يحبه الله»^(١).

ومما يعين على تحقيق الغيرة ما يأتي:

أولاً: استحضار أنَّ الغيرةَ صفةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي إحدى صفات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفات المتقين الصالحين، قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: «لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ»، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي»^(٢)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرِ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَةَ عُمَرَ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَبَكَى عُمَرُ وَنَحْنُ جَمِيعًا فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: يَا أَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَعَلَيْكَ أَغَارٌ؟^(٣)، قَالَ ابْنُ الْقِيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَالغِيورُ قد وافقَ رَبَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي صِفَةِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَمَنْ وافقَ اللَّهَ فِي صِفَةِ مِنْ صِفَاتِهِ قَادَتِهِ تِلْكَ الصِّفَةُ إِلَيْهِ بِزَمَامِهِ، وَأَدْخَلَتْهُ عَلَى رَبِّهِ، وَأَدْنَتْهُ مِنْهُ، وَقَرَّبَتْهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَصَيَّرَتْهُ مَحْبُوبًا لَهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحِيمٌ يُحِبُّ الرُّحَمَاءَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، عَلِيمٌ يُحِبُّ الْعُلَمَاءَ...»^(٤).

ثانيًا: البعد عن الذنوب والمعاصي، فإنَّ مِنْ آثارها السيئة إذهاب الغيرة

(١) ينظر: نيل الأوطار، للشوكاني، (م ٧ / ص ٢٨٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي: لا شخص أغير من الله، (٧٤١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان، برقم (١٤٩٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٣٩٥).

(٤) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ١٦٦).



من القلب، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «من عقوبات الذنوب أنها تطفئ من القلب نارَ الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تُخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يُخرج الكبرُ خبثَ الذهب والفضة والحديد»^(١).

ثالثاً: الحرص على الحياء، فكلما زاد الحياءُ زادت الغيرة، وضدُّ ذلك صحيح: كلما قلَّ الحياءُ ضعفت الغيرة، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(٢)، يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وبين الذنوب وقلة الحياء وعدم الغيرة ملازمةٌ أكيدةٌ من الطرفين، وكل منهما يَسْتَدْعِي الْآخَرَ، ويطلبه طلباً حثيثاً»^(٣).

والمنزلة الثانية هي منزلة الحياء، وهي من أعظم شُعَبِ الإيمان، وأُسُسِ الدِّين، وقد ذُكِرَ عند عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ الحياءُ، وأنه من الدِّين، فقال: «بل هو الدين كله»^(٤)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «خُلِقَ الحياءُ من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمِها قدراً وأكثرِها نفعاً، بل هو خاصة الإنسانية، فَمَنْ لَا حَيَاءَ فِيهِ، فَلَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْإِنْسَانِيَةِ إِلَّا اللَّحْمُ وَالدَّمُ وَصُورَتُهُمَا الظَّاهِرَةُ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ»^(٥).

والحياء لغةً: مصدر قولهم حَيَّيَ التي تدل على الاستحياء الذي هو ضدُّ

(١) ينظر: المصدر السابق، (ص ١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحياء، برقم (٤٧٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦٨٤).

(٣) ينظر: روضة المحبين، لابن القيم، (ص ٣٦٠).

(٤) ينظر: مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا، (ص ٨٧).

(٥) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٢٧٧).

الوقاحة، يقال: حيي منه حياء، واستحيا واستحي، وهو الانقباض والانزواء^(١).

والحياء اصطلاحاً: خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلَىٰ فِعْلِ الْحَسَنِ وترك القبيح^(٢)، ويقابله البذاء والجفاء، فالحياء باعثٌ لترك القبائح كالذنوب، والتقصير في الحقوق التي جاء فيها الوعيد للمخالف. والعُرف إذا وافق الشرع فإنه معتبر، وإن خالفه فهو فاسد غير معتبر^(٣)، فمن الحياء ترك ما يخالف المروءة ويقدح في الحياء في عُرفِ الناس.

والفرق بين الحياء والخجل أن: «الخجل: معنى يظهر في الوجه لغم يلحق القلب، عند ذهاب حجة، أو ظهور على ريبة، وما أشبه ذلك، فهو شيء تتغير به الهيئة.

والحياء: هو الارتداع بقوة الحياء، ولهذا يُقال: فلانٌ يستحي في هذه الحال أن يفعل كذا، ولا يقال: يخجل أن يفعله في هذه الحال؛ لأنَّ هيئته لا تتغير منه قبل أن يفعله، فالخجل ممّا كان، والحياء ممّا يكون.

وقد يُستعمل الحياء موضع الخجل توسعاً^(٤).

وللحياء ثمرات يانعة، وآثار نافعة، منها ما يأتي:

أولاً: الحياء من الصفات التي يحبها الله تبارك وتعالى، وما يحبه الله له شأن

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٩٠)، (ح ي ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٤ / ص ٢١٧)، (ح ي ي)، والمصباح المنير، للفيومي، (م ١ / ص ١٦٠)، (ح ي ي).

(٢) ينظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح، (م ٢ / ص ٢٢٧)، ورياض الصالحين، للنووي، (ص ٢٧٢).

(٣) ينظر: الموافقات، للشاطبي، (م ٢ / ٤٩٥)، ومجموعة الرسائل، لابن عابدين، (م ٢ / ص ١١٥).

(٤) ينظر: الفروق اللغوية، للعسكري، (ص ٢٤٤).



ومنزلة، فعن ابن عباسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلأَشَجِّ الْعَصْرِيِّ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ، وَالْحَيَاءَ»^(١).

ثانيًا: الحياء علامة الإيمان، وشُعْبَةٌ من شعب الإيمان، مقترن به، وقد «مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٢). قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسِتُونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»^(٣)، وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرْنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ»^(٤)، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَدْءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»^(٥).

ثالثًا: الحياء رأس الأخلاق في الإسلام، فالأخلاق كثيرة، لكن خُلِقَ الإسلام الحياء الذي يجمع في طياته كثيرًا من الأخلاق الفاضلة، وبه تُزَيَّن الأمور، ويحصل به الخير كله، فعن أنسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحلم، برقم (٤١٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، برقم (٥٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، برقم (٢٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (٩)، ومسلم في صحيحه واللفظ له، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٥).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک، كتاب الإيمان، إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، برقم (٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٦٠٣).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الحياء، برقم (٢٠٠٩)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحياء، برقم (٤١٨٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٤٩٥).

«إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»^(١)، وَعَنْ أَنَسٍ أَيْضًا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَلَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ»^(٢)، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»^(٣).

ومما يبلغ الإنسان تحقيق الحياء ما يأتي:

أولاً: استحضار الحياء من الله، ثم الحياء من الملائكة، ورؤيتهم له، فإن ذلك معينٌ على ترك ما لا يليق بالعبد، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»^(٤)، وَقَالَ: «فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»^(٥)، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْ الْمَلَائِكَةِ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وفي قصة دخول عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فَقَالَ: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»^(٦).

ثانياً: مجالسة أهل الحياء، فالإنسان يتأثر بمن يُجالس، ومجالسة أهل

- (١) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحياء، برقم (٤١٨١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٤٠).
- (٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحياء، برقم (٤١٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٦٥٥).
- (٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء، برقم (٦١١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٧).
- (٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٦٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٧٢٤).
- (٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في حفظ العورة، برقم (٢٧٦٩)، وابن ماجه في سننه، أبواب النكاح، باب التستر عند الجماع، برقم (١٩٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٠٣).
- (٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٤٠١).



الحياة سبباً لتنمية خلق الحياة عند المرء وزيادته، فعن سعيد بن يزيد الأزدي، أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «أوصني، قال: «أوصيك أن تستحي من الله عز وجل، كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»^(١). قال بعض السلف: «أحيوا الحياة بمجالسة من يستحي منه»^(٢)، وقال مجاهد رحمه الله: «إن المسلم لو لم يصب من أخيه إلا أن حياته منه يمنعه من المعاصي؛ لكفاه»^(٣).

ثالثاً: النظر في سير المرسلين، وصفات المتقين، وكيف كان الحياة حاضراً في حياتهم، ففي صفة نبينا صلى الله عليه وسلم يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها»^(٤)، وعن حياة موسى عليه السلام يقول أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن موسى كان رجلاً حياءً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياء منه»^(٥)، وجاء في قصة ابنة صاحب مدين مع موسى عليه السلام: «فجاءته إحداهما تمشي على استحياء» [القصص: ٢٥]، ومضى معنا وصف عثمان رضي الله عنه بالحياة، وعن علي رضي الله عنه قال: «كنت رجلاً مذاءً، وكنت أستحي أن أسأل النبي صلى الله عليه وسلم لمكان ابنته، فأمرت المقداد بن الأسود فسأله، فقال: «يغسل»

(١) أخرجه الطبراني في معجمه، باب السين، من اسمه سعيد، سعيد بن يزيد الأزدي، برقم (٥٥٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٥٤١).

(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، (برقم ٨٦٦٢).

(٣) ينظر: مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا، (ص ٩٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (٣٥٦٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حياته صلى الله عليه وسلم، برقم (٢٣٢٠).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثني إسحاق بن نصر، برقم (٣٤٠٤).

ذَكَرَهُ وَيَتَوَضَّأُ»^(١)، وفي الصحيح عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلِ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ». فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَغْنِي وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكَ، فَبِمَ يُشَبِّهُهَا وَلَدَهَا»^(٢)؛ غَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ وَجْهَهَا مِنَ الْحَيَاءِ، وَالْأَعْجَبُ حَيَاءُ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مَيِّتٌ، قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي، فَأَضَعُ ثَوْبِي وَأَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ فَوَاللَّهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مُشْدُودَةٌ عَلَى ثِيَابِي حَيَاءٌ مِنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»^(٣).



- (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال، برقم (١٣٢)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له، كتاب الحيض، باب المذي، برقم (٣٠٣).
- (٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، برقم (١٣٠).
- (٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها، برقم (٢٦٢٤٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم (١٧٧١).



قُلْ: الْيَقِينُ قُوَّةُ الْإِيمَانِ تَوَاضَعٌ وَسَكَنُ الْجَنَانِ

أشار الناظم في هذا البيت إلى منزلة اليقين، واليقين من صميم الإيمان، والمحرك للخير والجنان، وزاد السائر، وعُدَّة المسافر، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ»^(١)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «باليقين طُلِبَتِ الجنةُ، وباليقين هُرِبَ مِنَ النارِ، وباليقين أُدِّيتِ الفرائضُ، وباليقين صُبِرَ عَلَى الْحَقِّ»^(٢). يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْيَقِينُ وَالْمَحَبَّةُ هُمَا رَكْنَا الْإِيمَانِ، وَعَلَيْهِمَا يَنْبَنِي، وَبِهِمَا قَوَامُهُ، وَهُمَا يَمْدَانِ سَائِرَ الْأَعْمَالِ، وَبِقُوَّتِهِمَا قُوَّتُهَا، وَجَمِيعُ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ إِنَّمَا تُفْتَحُ بِهِمَا، وَهُمَا يُثْمِرَانِ كُلَّ عَمَلٍ صَالِحٍ، وَعِلْمٍ نَافِعٍ، وَهَذِي مُسْتَقِيمٌ»^(٣).

واليقين في اللغة: العلم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر، واليقين نقيض الشك، والعلم نقيض الجهل، تقول عَلِمْتُهُ يَقِينًا^(٤).

واليقين اصطلاحًا: سكون الفهم مع ثبات الحُكْمِ^(٥)، بمعنى قوة الاعتقاد واستقراره ورسوخه، مع الطمأنينة والسكون لما يَعْتَقِدُهُ، حتى يصير رسوخه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا موقوفًا، كتاب الإيمان، باب الإيمان، (م ١ / ص ١٥٠)، وصححه ابن حجر في الفتح، (م ١ / ص ٦٣).

(٢) ينظر: الزهد، لابن المبارك، (برقم ٥٥٨)، والزهد، لأحمد، واللفظ له، (برقم ١٦١٧)، واليقين، لابن أبي الدنيا، (ص ١٣).

(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٧٧).

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١١٠)، (ي ق ن)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٥ / ص ٤٥٤)، (ي ق ن).

(٥) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٥ / ص ٥٧٠)، ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب، (ص ٥٥٢).

في الغيب كرسوخه في الشهادة، ومتى ما بلغ القلب هذه الرتبة وصل إلى أعلى الدرجات.

واليقين أعلى درجات الإدراك^(١) وأكملها، والفرق بينه وبين العلم أن العلم تُعارضه الشكوك، واليقين لا شك فيه^(٢)، أي اليقين رسوخ لا يقبل الشك، بخلاف العلم؛ فقد يضعف في القلب، وتعثره بعض الشكوك.

واليقين العديد من الثمار، وجميل الآثار، والتي منها:

أولاً: اليقين سبب الفلاح في الدارين، قال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٣) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿البقرة: ٤، ٥﴾، وجاء في الحديث: «قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْأَوَّلِ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ بَكَى، فَقَالَ: «اسْأَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ»^(٤)، يقول ابن القيم رحمه الله: «لا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا من قلبه وبدنه»^(٥).

ثانياً: اليقين يورث الانتفاع بالآيات، قال تبارك وتعالى: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٧٢١).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٩٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٩١٥)، وابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، برقم (٣٩٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣٣٨٧).

(٤) ينظر: زاد المعاد، لابن القيم، (م ٤ / ص ١٩٧).



[الذاريات: ٢٠]. يقول القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «والموقنون: هم العارفون المحققون وحدانية ربهم، وصدق نبوة نبيهم، خصهم بالذكر؛ لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها»^(١).

ثالثاً: اليقين من أسباب تحقيق الإمامة في الدين، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «الصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين»^(٢)، والجمع بين الصبر واليقين له دلالة دقيقة، وهو أن اليقين هو الذي يوصل إلى الصبر، فالصبر لا يتحقق مع جزع القلب وقلقه. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «لا يمكن للعبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئنُّ له، ويتنعم به، ويغتذي به، وهو اليقين»^(٣)، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وعلى حسب يقين العبد بالمشروع، يكون صبره على المقدور»^(٤).

رابعاً: اليقين يورث التوكل على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فكلما كان المرء أكثر يقيناً كان أكثر توكلًا، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والحق المبين هو اليقين هنا^(٥)، يقول الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «يا بن آدم، إنَّ من ضعف يقينك أن تكون بما في يدك أوثق بما في يد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٦)، ويقول مسروق رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ أحسن ما أكون ظناً لحين يقول الخادم: ليس في البيت قفيزٌ من قمح، ولا درهم»^(٧).

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ١٩ / ص ٤٨٤).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٣ / ص ٣٥٨).

(٣) ينظر: الاستقامة، لابن تيمية، (م ٢ / ص ٢٦١).

(٤) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ١٣٧).

(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٩٨).

(٦) ينظر: اليقين، لابن أبي الدنيا، (ص ٣٤).

(٧) ينظر: الزهد، لهناد السري، برقم (٥٩٢).

خامسًا: اليقين سببٌ لدخول الجنة، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: «أَذْهَبُ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَقِيمًا بِهَا قَلْبُهُ؛ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»^(١)، قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه: أخبرهم أَنَّ مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِلَّا فَأَبُو هُرَيْرَةَ لَا يَعْلَمُ اسْتِيقَانَ قُلُوبِهِمْ»^(٢).

ومما يوصل العبد لتحقيق اليقين في حياته ما يأتي:

أولًا: الحرص على العلم الموصول إلى اليقين، فكلما ازداد المرء علمًا نافعًا من الكتاب والسنة ازداد يقينًا، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينة، كما يكون بالعلم»^(٣).

ثانيًا: الدعاء وسؤال الله اليقين، ومن الدعوات التي كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكثِرُ منها في مجالسِهِ كما يقول ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهِؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تَهْوُونَ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا...»»^(٤).

ثالثًا: معرفة أَنَّ اليقين مفتاحٌ لكثير من الأعمال القلبية، فمتى ما وُجِدَ اليقين سهلت بقية المنازل والمقامات، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومتى وصل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه؛ دخل الجنة، وحرم على النار، برقم (٣١).

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ١ / ص ٢٣٧).

(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ٢١٦).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٢٧٩).



اليقينُ إلى القلب امتلاءً نورًا وإشراقًا، وانتفى عنهُ كلُّ ريبٍ وشكٍّ وسخطٍ،
 وهمٌّ وغمٍّ، فامتلاءً محبةً لله، وخوفًا منه ورضا به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه،
 وإنابةً إليه، فهو مادةٌ لجميع المقامات والحاملُ لها^(١). وقال ابن رجب
 رَحِمَهُ اللهُ: «فَمَنْ حَقَّقَ اليقينَ، وثق بالله في أموره كُلِّها، ورضي بتدبيره له،
 وانقطع عن التعلُّقِ بالمخلوقين رجاءً وخوفًا»^(٢).



(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٤١٣).
 (٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (م ٢ / ص ١٨).



والتوبة الإقلاع عن ذنوبٍ ونَدَمٌ على اقترافِ حَوْبٍ
والعزمُ ألا للذنوبِ يَرْجِعَا كذاكَ إِنْ كانتِ حقوقًا أَرْجِعَا

يذكر الناظم في هذين البيتين منزلة التوبة، وهي المنزلة التي يحتاجها المرء في بداية السَّير، وفي تجديد السَّير، بل يحتاجها في كل يوم، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١)، وقال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنْ حَقَّقَ اللَّهُ أَعْظَمُ مَنْ أَنْ يَقُومَ بِهَا الْعِبَادُ، وَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَلَكِنْ أَصْبَحُوا تَائِبِينَ، وَأَمْسُوا تَائِبِينَ»^(٢).

والتوبة في اللغة: مِنْ: تاب يتوب، بمعنى الرجوع والعودة، يقال: تاب مِنْ ذنبه، أَي: رَجَعَ وَعَادَ^(٣).

وأما التوبة في الاصطلاح: فهي تَرْكُ الذنبِ علماً بِقُبْحِهِ، والنَّدَمُ على فعله، والعزمُ على عدم المعاودة وتدارك ما أَمْكَنَهُ أَنْ يَتَدَارَكَ مِنَ الْأَعْمَالِ بِالْإِعَادَةِ^(٤)، وهذا التعريف يَنْتَظِمُ شروطَ التوبة المعروفة.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء التوبة واجبةٌ من كل ذنب، فإنْ كانت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم واللييلة، برقم (٦٣٠٧).

(٢) ينظر: السير، للذهبي، (م ٤ / ص ٦٢٢).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٧٤)، (ت و ب)، وتهذيب اللغة، للأزهري، (م ٤ / ص ٣)، (ت و ب).

(٤) ينظر: المفردات، للراغب، (ص ٧٤).



المعصية بين العبد وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها: أن يُقلع عن المعصية، والثاني: الندمُ على فعلها، والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبداً، فإنْ فُقدَ أحدُ الثلاثة لم تصحَّ توبته، وإنْ كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حقِّ صاحبها...»^(١).

وأكمل درجات التوبة هي التوبة النصوح، «ونصح التوبة: الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها»^(٢)، والإنابة أخص من التوبة، وتأتي بعد استقرار القدم في التوبة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مَنْ نَزَلَ فِي مَنْزِلَةِ التَّوْبَةِ، وَقَامَ فِي مَقَامِهَا؛ نَزَلَ فِي جَمِيعِ مَنْازِلِ الْإِسْلَامِ، فَإِذَا اسْتَقَرَّتْ قَدُمُهُ فِي مَنْزِلِ التَّوْبَةِ نَزَلَ بَعْدَهُ فِي مَنْزِلِ الْإِنَابَةِ»^(٣).

وأما ثمرات التوبة فهي كثيرة جليلة، ومتعددة كريمة، منها:

أولاً: محبة الله للتائبين، وفرحُه بتوبتهم، وهذا يدلُّ على عظمة هذه المنزلة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّى اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ، أَوْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ»^(٤)، قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ: «للتائب فخرٌ لا يعادله فخرٌ في جميع أفخاره: فرحُ

(١) ينظر: رياض الصالحين، للنووي، (ص ٤٧).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣١٠).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٤٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الدعوات، باب التوبة، برقم (٦٣٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها، برقم (٢٦٧٥).



الله بتوبته»^(١).

ثانيًا: التوبة سببُ السعادة والفلاح، فالسعادة كلُّ السعادة في العودة إلى الله والفرار إليه، والظنك والشقاء في البعد عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، فعَلَّقَ الله الفلاح على حصولِ التوبة وتحقيقها.

ثالثًا: التوبة سبب لتبديل السيئات إلى حسنات، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من كرمه وجوده وفضله يدعوكم للتوبة، ويكافئكم بتبديل السيئات إلى حسنات، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

رابعًا: التوبة سبب لتطهير القلب وصلاحه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٢)، قال المباركفوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «صُقِلَ، بالصاد، والمعنى: نظَّفَ وصفَّى مرآة قلبه؛ لأنَّ التوبة بمنزلة المصقلة تمحو وسخ القلب وسواده»^(٣).

خامسًا: التوبة سبب للبركات والخيرات والأرزاق ورغد العيش، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَا قَوْمِ

(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ١٠ / ص ٥٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (٤٢٤٤)، وحسنه

الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٦٧٠).

(٣) ينظر: تحفة الأحوذى، للمباركفوري، (م ٨ / ص ٣٤٥).



اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود: ٥٢].

ومما يوصل الإنسان إلى منزلة التوبة، ويعينه على تحقيقها ما يأتي:

أولاً: تدبّر القرآن، والنظر في آيات الوعد والوعيد، يقول القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «الباعثُ على التوبة وحلُّ الإصرار؛ إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيز الغفار، وما ذكره الله سُبحَانَهُ وتعالى من تفاصيل الجنة، ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار، وتهدّد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه، فدعا ربه رغبا ورهبا»^(١).

ثانياً: محاسبة النفس، فلا يزال العبد يحاسب نفسه ويعاتبها حتى تصير إلى منزلة التوبة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن منزلة المحاسبة: «فإذا صحَّ هذا المقام، ونزل العبد في هذه المنزلة، أشرف منها على مقام التوبة؛ لأنه بالمحاسبة قد تميّز عنده ما له وما عليه، فليجمع همته وعزمه على النزول فيه، والتشمير إليه إلى الممات»^(٢).

ثالثاً: تذكر نعم الله، كيف يُنعم الله عليك بالنعم التي لا تُحصى ثم تجعل هذه النعم في معصية الله، فهل يقابل الإحسان بالكفران؟! فيتفكر المرء في كل جارية يعصي بها ويسأل نفسه: أهكذا أشكر ربي على هذه النعمة؟! فإن ذلك يورث الندم والرجوع.



(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ٥ / ص ٣٢٦).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ١٦٩).



إِنَابَةُ قُلْ سُرْعَةُ الرَّجُوعِ إِلَى الْهَدْيِ وَالْخَيْرِ بِالْخُضُوعِ

ختم الناظم أعمال القلوب بمنزلة الإنابة، وهي من المنازل العالية، والمقامات السامية.

والإنابة في اللغة من: نَوَبَ التي تدل على اعتياد المكان والرجوع إليه، يقال: أناب فلانٌ إلى الشيء، أي: رَجَعَ إليه مرةً بعد أخرى^(١).

والإنابة اصطلاحاً: الإسراعُ إلى مرضاة الله مع الرجوع إليه في كل وقتٍ، وإخلاص العمل له^(٢)، ومحبته والخضوع له، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالإنابة: الرجوعُ إلى الله، وانصرافُ دواعي القلبِ وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية، فإنَّ المنيبَ محبٌّ لِمَن أناب، خاضعٌ له، خاشعٌ ذليلٌ»^(٣)، وقال أيضاً: «وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه»^(٤).

وأما ثمرات هذه المنزلة، وفضائل هذه المرتبة، فهي على النحو الآتي:

أولاً: جزاء المنيب جناتُ النعيم، فمن كان رجّاعاً إلى الله في كل حينٍ وثائباً إليه، مع محبةٍ وخشيةٍ وتعظيمٍ وخضوعٍ؛ كان موعوداً بالجنة دارِ الخلود، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(٥) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٠٠٢)، (ن و ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٧٧٤)، (ن و ب).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٦٧).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٧٣).

(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٦٧).



أَوَابٍ حَفِيزٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ [ق: ٣١ - ٣٤].

ثانيًا: الإنابة طريقُ الهداية، فمن أناب إلى الله آواه وهداه واجتبه وسدده، بفضلِهِ وكرمِهِ ومنه ورحمته، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

ثالثًا: أهل الإنابة هم أهل التذكر والانتفاع بالذكر، يتفعلون بالبراهين والآيات، ويتأثرون بالتخويف والعظات، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَشْأَ نُخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبا: ٩].

وأما سبل بلوغ هذه المنزلة وتحقيقها فتتمثل في الآتي:

أولًا: التفكير في خلق الله والنظر في آياته وآلائه، وعجيب لطفه، وهذا يقود إلى سرعة الإذعان والإنابة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۖ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

ثانيًا: المداومة على ذكر الله والإكثار منه، ففي الذكر طمأنينة القلب، وراحة النفس، وسكينة الروح، فمتى ما امتلأ القلب بمعاني الذكر أكثر المرء الرجوع والإنابة، ومما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في فوائد الذكر: «أنه يورث الإنابة، وهو الرجوع إلى الله عَزَّجَلَّ، فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك

رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاده، وقبلة قلبه عند النوازل والبلايا»^(١).

ثالثاً: سؤال الله تبارك وتعالى أن يرزقك الإنابة، والتوبة والرجوع إليه، بل إن جميع المنازل تطلب من الله تبارك وتعالى. ومن أجمع الدعوات في ذلك ما جاء في السنن عن ابن عباس قال: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو يَقُولُ: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تُنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَأَنْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَعًا، لَكَ مُحِبًّا، إِلَيْكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَتَبَسَّ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»^(٢).



(١) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٥١)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، برقم (١٥١٠)، وابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٤٨٥).

مفسدات القلوب

وَالْمَيْلُ مَفْسَدٌ لَهَا فَلْتَذْكُرِ لِلشُّرْكِ أَوْ لَشَهْوَةٍ وَمَنْكَرٍ

انتقل الناظم بعد ذكر أعمال القلوب إلى تعداد جملة من مفسدات القلوب، فالقلب كما يُحَلَّى بالأعمال الزاكيات يُخَلَّى من المفسدات، فهو دائرٌ بين التخلية والتحلية، «وقبول المحل لما يوضع فيه مشروطٌ بتفريغه من ضده»^(١)، وتطهير القلب مما يفسده مقصدٌ شرعيٌّ عظيم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَيَنَابِكَ فَطَهَّرْ﴾ [المذثر: ٤]، قال سعيد بن جبیر رَحِمَهُ اللهُ: قَلْبَكَ فَطَهَّرْ^(٢)، قال ابن القيم: «وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هنا القلب، والمراد بالطهارة إصلاح الأخلاق والأعمال»^(٣).

ولمّا كان القلب هو القائد للجوارح أجلب الشيطان عليه بالمفسدات وجعل إفساده الهدف الأول، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه؛ أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصدّه عن الطريق، وأمدّه من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايدِهِ إلا بدوام الاستعانة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والتعرض

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٤١)

(٢) ينظر: فتح القدير، للشوكاني، (م ٥ / ص ٤٣٠).

(٣) ينظر: إغائة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٨٦).

لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته»^(١).

فصلاح القلوب تعلقها بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وفساد القلوب بتعلقها بغير الله، فاجعل قلبك خالصاً لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، واحفظه من كل شوائب التعلق والعبوديات المنافية لتمام التعلق بالله، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «كل من تعلق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه، أو أن يهدوه، خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميراً لهم، مدبراً لهم، متصرفاً بهم، فالعقل ينظر إلى الحقائق، لا إلى الظواهر»^(٢).

ومن أعظم ما تستدفع به المفسدات القلوب وآفاتُها، ويحصل بها صلاحُها واستقامتها أمدان:

أحدهما: أن تكون محبةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حبُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وحبُّ غيره سبق حبُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى حبَّ ما سواه، فرتب على ذلك مقتضاه ...

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي؛ وهو ناشئ عن تعظيم الأمرِ الناهي، فإنَّ الله ذمَّ مَنْ لَا يَعِظْهُ، وَلَا يَعِظُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عظمة»^(٣).

وأمرض القلوب ومفسداتها كثيرة، ترجع إلى نوعين: أمراض الشبهات، وأمراض الشهوات، جاءت الإشارة إليها في الحديث: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ

(١) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٧).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ١٨٥).

(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، بتصرف، (ص ١٤-١٥).



شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ، وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْهُوَى»^(١)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته، وهما مرضُ الشهوات، ومرضُ الشبهات، هذا أصلُ داءِ الخلق إلا مَنْ عافاه الله»^(٢). وأشار الناظمُ إلى المفسدات، ودعا للانتباه لها، والحدَر منها، وتذكُّرها وعدم إهمالها؛ لأنَّ المفسدات تنخر القلوب، فلا تزكو ولا تنمو مع وجودها وتغلغلها في القلوب، بل هي من العقوبات، يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ضرب عبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوةِ القلب، والبعدِ عن الله»^(٣).

وأول هذه المفسدات الشرك، وهو في اللغة من: أشرك به يشرك إشراكًا، اسم للشيء الذي يكون بين أكثر من واحد، بحيث لا ينفرد به أحدهم، يقال شاركت فلانًا في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلانًا إذا جعلته شريكًا لك، فيرجع معناه إلى المشاركة^(٤)، وأما في الاصطلاح فهو: مساواة غير الله بالله فيما هو من خصائص الله^(٥)، ويُعرِّفه آخرون بما جاء في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ...»^(٦).

- (١) أخرجه أحمد في مسند، مسند البصريين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٠٠٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٥٠).
- (٢) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ١٢١).
- (٣) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٢).
- (٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٥٥٧)، (ش ر ك)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٠ / ص ٤٤٨)، (ش ر ك)، وتهذيب اللغة، للأزهري، (ش ر ك)، (م ١٠ / ص ١٦)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ١٢٢٠)، (ش ر ك).
- (٥) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٣ / ص ١٩)، والدر النضيد، للشوكاني، (ص ١٨).
- (٦) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب إثم الزناة، برقم (٦٨١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، برقم (٨٦).

وَيُقَسَّمُ بِتَقَاسِيمَ كَثِيرَةٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقْسِمُهُ إِلَى أَكْبَرَ وَأَصْغَرَ^(١)، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْسِمُهُ إِلَى شَرِكِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَشَرِكِ الْأُلُوهِيَّةِ، وَشَرِكِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْسِمُهُ إِلَى شَرِكِ الْأَلْفَاظِ، وَشَرِكِ الْأَفْعَالِ. وَأَفْرَادُهُ وَصُورُهُ كَثِيرَةٌ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالشَّرِكُ أَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ، لَا يَحْصِيهَا إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ ذَهَبْنَا نَذْكُرُ أَنْوَاعَهُ لَا تَسَعُ الْكَلَامُ أَعْظَمَ اتِّسَاعٍ»^(٢).

وَالشَّرِكُ أخطرُ المفسداتِ عَلَى الإِطْلَاقِ؛ وَأَعْظَمُ الذُّنُوبِ بِالِاتِّفَاقِ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي مَعْرِضِ ذِكْرِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ: «وَمِنْ أَعْظَمِ أَدْوَائِهِ: الشَّرْكُ، وَالذُّنُوبُ، وَالْخُفْلَةُ، وَالْإِسْتِهَانَةُ بِمَحَابِّهِ وَمَرَاضِيهِ، وَتَرْكُ التَّفْوِيضِ إِلَيْهِ، وَقِلَّةُ الْإِعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَالرُّكُونُ إِلَى مَا سِوَاهُ، وَالسُّخْطُ بِمَقْدُورِهِ، وَالشُّكُّ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ»^(٣)، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ خُصُوصِ هَذَا الْمَفْسَدِ: «وَهَذَا أَعْظَمُ مُفْسِدَاتِهِ عَلَى الإِطْلَاقِ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ أَضَرُّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَقْطَعُ لَهُ عَنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَخَذَلَهُ مِنْ جِهَةٍ مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَفَاتَهُ تَحْصِيلُ مَقْصُودِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِهِ وَالتَّفَاتِيهِ إِلَى سِوَاهُ، فَلَا عَلَى نَصِيْبِهِ مِنَ اللَّهِ حَصْلٌ، وَلَا إِلَى مَا أَمَلَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ وَصَلَّ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(٤) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾^(٥) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، فَأَعْظَمُ النَّاسِ خِذْلَانًا مَنْ تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنْ مَا فَاتَهُ مِنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ أَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ، وَهُوَ

(١) وزاد بعض أصحاب هذا التقسيم قسمًا ثالثًا، وهو: الشُّرْكُ الْخَفِيُّ، لَخَفَائِهِ وَدَقَّةِ مَسَائِلِهِ، وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي الْقِسْمَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ.

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٧٦).

(٣) ينظر: زاد المعاد، لابن القيم، (ك ٤ / ص ١٨٥).



مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ وَالْفَوَاتِ، وَمِثْلُ الْمُتَعَلِّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ كَمِثْلِ الْمُسْتَظِلِّ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِيَّتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَأَوْهَنِ الْبُيُوتِ»^(١).

فالشرك هو الذنب الذي لا يُغفر إن لم يُتُبْ منه صاحبه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وقد حَرَّمَ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى أَهْلِ الشَّرْكِ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. وَإِنَّ الشَّرْكَ مُحِبٌّ لِلْعَمَلِ كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وما ذلك إِلَّا لِأَنَّهُ شَبَّهَ الْمَخْلُوقَ بِالْخَالِقِ، وَصَرَفَ حَقَّ الْخَالِقِ لِلْمَخْلُوقِ، وَخَالَفَ فِيهِ الْمَخْلُوقُ الْقِسْطَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِهِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، «فأخبر أنه أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل، ومن أعظم القسط: التوحيد، بل هو رأس العدل وقوامه، وإنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، فَالشَّرْكَ أَظْلَمُ الظُّلْمِ، وَالتَّوْحِيدُ أَعْدَلُ الْعَدْلِ، فَمَا كَانَ أَشَدَّ مَنَافَاةً لِهَذَا الْمَقْصُودِ فَهُوَ أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ، وَتَفَاوُتُهَا فِي دَرَجَاتِهَا بِحَسَبِ مَنَافَاتِهَا لَهُ»^(٢). يَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مِثْلُ الْمُشْرِكِ كَمَنْ اسْتَعْمَلَهُ سَيِّدُهُ فِي دَارِهِ فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤْدِي خَرَجَهُ وَعَمَلَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَالْمُشْرِكُ يَعْمَلُ لغيرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي دَارِ اللَّهِ، وَيَتَقَرَّبُ إِلَى عَدُوِّ اللَّهِ بِنِعْمِ اللَّهِ»^(٣).

والشرك من أكبر الكبائر، وأبغض إلى الله من جميع الذنوب، وصاحبه

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٥٥).

(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ٢٩٦).

(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (٣٢).

مخدولٌ موكولٌ إلى شركه، فعن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أكبر الكبائر: الإشرāk بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وقول الزور»، أو قال: «وشهادة الزور»^(١)، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢). فمضارُّ الشرك عظيمةٌ، وآثاره وخيمةٌ في الدنيا والآخرة، وليت شعري كم حجمُ فسادِ هذا القلب الذي داخله الشرك! يقول ابن القيم رحمه الله: «والمقصود أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات؛ كان أبغض الأشياء إلى الله تبارك وتعالى، وأكْرهها له، وأشدّها مقتاً لديه، ورتّب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتّب على ذنبٍ سواه»^(٣).

والشرك يأتي على رأس العوائق التي تُعيق القلب عن سيره إلى الله تبارك وتعالى، يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنّها تعوق القلب عن سيره إلى الله، وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: شركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ؛ فيزول عائقُ الشرك بتجريد التّوحيد، وعائقُ البدعة بتحقيق السنّة، وعائقُ المعصية بتصحيح التّوبة»^(٤).

والمفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيت هو الشهوات

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ومن أحيائها﴾، برقم (٦٨٧١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرفائق، باب من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥).

(٣) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٦٠).

(٤) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٥).



والمنكرات والمعاصي، والعصيان اسم من: عصي يعصي عصيًا وعصيانًا، ويقال: عصا، وهو عاصٍ، والجمع عُصاة وعاصون. وأصله مُفَارَقَةُ الطاعة والخروجُ عنها^(١).

والعصيان اصطلاحًا: ترك الانقياد لما أمر الله به أو نهى عنه^(٢)، أي فعلُ المحظورات، وتركُ المأمورات.

والشهوة: هي الرغبة في الشيء ومحَبَّتُه^(٣)، وهي ليست مذمومة في حد ذاتها، وإنما بحسب ما تُستخدم، فإن استُخدمت فيما ينفع وما يُباح فهي خيرٌ لصاحبها، وإلا فهي شرٌّ عليه، وهذا الثاني هو المقصود في المفسدات، يقول ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ الله خلقَ فينا الشهواتِ واللَّذاتِ؛ لِنُسْتَعِينَ بها على كمالِ مصالحِنَا، فخلقَ فينا شهوةَ الأكلِ واللَّذةَ به، فإنَّ ذلك في نفسه نعمةٌ، وبه يحصل بقاءُ جُسُومِنَا في الدنيا، وكذلك شهوةُ النكاحِ واللَّذةُ به في نفسه نعمةٌ، وبه يحصل بقاءُ النسلِ، فإذا اسْتُعِين بهذه القوى على ما أمرنا كان ذلك سعادةً لنا في الدنيا والآخرة، وكُنَّا من الذين أنعمَ اللهُ عليهم نعمةً مطلقةً، وإن استعملنا الشهواتِ فيما حَظَرَه علينا بأكلِ الخبائثِ في نفسها، أو كسبِها كالمظالم، أو بالإسرافِ فيها، أو تعدِّيها أزوارجنا، أو ما ملكت أيماننا، كُنَّا ظالمين معتدين غيرَ شاكرين لنعمته»^(٤).

وتُطلق الشهواتُ على خصوص شهواتِ الفرجِ والبطن، كما تطلق على

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٧٨٠)، (ع ص ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٥ / ص ٦٨)، (ع ص ي).

(٢) ينظر: التوقيف، للمناوي، (ص ٧)، والتعريفات، للجرجاني، (ص ١٥٦).

(٣) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١٤ / ص ٤٤٥)، (ش هـ و).

(٤) ينظر: الاستقامة، لابن تيمية، (م ١ / ص ٣٤١).

عموم المعاصي. وشهوة النساء من أعظم شهوات الدنيا، فعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضُرَّ عَلَى الرَّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(١).

وَتَقَسَّمَ الذُّنُوبَ بِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، مِنْهَا تَقْسِيمُ الذُّنُوبِ إِلَى كِبَائِرَ وَصَغَائِرَ^(٢)، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تُجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] قَالَ الطُّوفِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِيهِ انْقِسَامُ السَّيِّئَاتِ إِلَى كِبَائِرَ وَصَغَائِرَ»^(٣)، وَمِنْهَا تَقْسِيمُ الذُّنُوبِ إِلَى ذُنُوبٍ تَتَعَلَّقُ بِالْأَدْمِيْنَ وَذُنُوبٍ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ^(٤)، وَمِنْهَا تَقْسِيمُ الذُّنُوبِ إِلَى ذُنُوبٍ مُلْكِيَّةٍ كَالْعِظْمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَذُنُوبٍ شَيْطَانِيَّةٍ كَالْحَسَدِ وَالْبَغْيِ وَذُنُوبٍ سَبْعِيَّةٍ كَالْعُدْوَانِ وَسَفْكِ الدَّمَاءِ وَذُنُوبٍ بَهِيمِيَّةٍ كَالشَّرِّهِ وَالْحِرْصِ عَلَى قَضَاءِ شَهْوَةِ الْبَطْنِ وَالْفَرْجِ^(٥).

وَالْمَعَاصِي فِي دَرَجَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَكَذَا الْعِصَاةُ فَهَمُ مُتَفَاوِتُونَ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ وَيَمْتَنِعُ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْتَكِبُ الْمَعَاصِيَ وَيَفْعَلُ الطَّاعَاتِ^(٦).

وَأَضْرَارُ الذُّنُوبِ مُخِيفَةٌ، فَهِيَ تَجْلِبُ النِّقَمَ، وَتَزِيلُ النِّعَمَ، وَتُهْلِكُ الْأُمَمَ،

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ مَا يَتَّقَى مِنْ شَوْمِ الْمَرْأَةِ، بِرَقْمِ (٥٠٩٦)، وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، كِتَابُ الرِّقَاقِ، بَابُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْفُقَرَاءُ، بِرَقْمِ (٢٧٤٠).

(٢) يَنْظُرُ: الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ لِابْنِ الْقَيْمِ، (ص ٢٨٩).

(٣) يَنْظُرُ: الْإِشَارَاتُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَى الْمُبَاحِثِ الْأَصُولِيَّةِ، لِلطُّوفِيِّ، (م ٢ / ص ٢٢).

(٤) يَنْظُرُ: مُخْتَصِرٌ مِنْهَا الْقَاصِدِينَ، لِابْنِ قِدَامَةَ، (ص ٢٥٢).

(٥) يَنْظُرُ: الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ، لِابْنِ الْقَيْمِ، (ص ٢٢٢).

(٦) يَنْظُرُ: أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، لِلْمَآوَرِدِيِّ، (ص ١٠٣).



قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وكلما قلت الذنوب صَفَتِ القلوبُ، قال مكحول رَحِمَهُ اللَّهُ: «أرقُّ الناس قلوبًا، أقلُّهم ذنوبًا»^(١)، وبقدر فعل الشهوات يُحجب القلبُ عن التعلُّق بالرَّبِّ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القلوبُ المتعلِّقة بالشهوات محجوبةٌ عن الله بقدر تعلقها»^(٢).

ولابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ نفيسٌ طويلٌ حول أضرار الذنوب والمعاصي، اختصر في هذا المقام الأضرارَ المتعلِّقة بالقلب؛ إذ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة والمضرة بالقلب والبدن والدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله؛ فمنها ظلمةٌ يجدها في قلبه حقيقةً، يُحسُّ بها كما يحسُّ بظلمة الليل البهيم إذا ادلَّهَمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظلمة الحسيَّة لبصره، فإنَّ الطاعة نورٌ، والمعصية ظلمةٌ. ومنها: أنَّ المعاصي تُوهِن القلبَ والبدنَ، وأما وهنها للقلب فأمرٌ ظاهرٌ، بل لا تزال توهِّنه حتى تُزيلَ حياته بالكلية، ومنها - وهو من أخوفها على العبد - أنها تُضعف القلبَ عن إرادته، فتقوِّي إرادةُ المعصية، وتُضعف إرادةُ التوبة شيئًا فشيئًا إلى أن تنسلخَ من قلبه إرادةُ التوبة بالكلية. ومنها أنه ينسلخُ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يستقبح من نفسه رؤيةَ الناس له، ولا كلامهم فيه. ومنها أنَّ الذنوبَ إذا تكاثرت طُبِعَ على قلب صاحبها، فكان من الغافلين. ومنها أنها تُطفئ من القلب نارَ الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن. ومنها ذهابُ الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب. ومنها أنها تُضعف

(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٢ / ص ٣٥١).

(٢) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٢).



في القلب تعظيمَ الربِّ جل في علاه، وتضعف وقارَه في قلب العبد، ولا بُدَّ، شاء أم أبى. ومنها أنها تضعف سَيْرَ القلب إلى الله والدار الآخرة. ومنها ما يُلقِيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا، ومنها أنها تُوقِع الوحشة العظيمة في القلب. ومنها أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه. ومنها أنها تعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسدُّ طرقَ العلم، وتحجب موادَّ الهداية. ومنها أنها تعمي القلب، فإن لم تُعمِه أضعفت بصيرته. ومنها حجابُ القلب عن الربِّ في الدنيا، والحجابُ الأكبرُ يوم القيامة»^(١).

ثم إن هذه الآثار والعقوبات على القلوب تنتقل للأبدان ولا بد، «وعقوبة القلوب أشدُّ العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان، وهذه العقوبة تقوَّى وتزايد حتى تسري من القلب إلى البدن»^(٢).

ومما يُزيد الذنوب قبحًا، وبالقلب فتكًا، أمران: أحدهما الاستهانة بالذنوب واحتقارها، والثاني المجاهرة بالذنوب بعد ستر الله، وكم جاءت النصوص في ذم هذين الأمرين، فعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»^(٣). وعن سهل بن سعد، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مِثْلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنًا وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بُعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بُعُودٍ، حَتَّى أَنْصَبُوا خُبْرَتَهُمْ، وَإِنْ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ

(١) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، بتصرف، (ص ١٢٣ - ٢٧٨).

(٢) ينظر: المصدر السابق، (ص ٢٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب، برقم (٦٤٩٢).



مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ»^(١). وعن أبي هريرة قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ، فَيَقُولَ: يَا فَلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»^(٢).

ومن لطيف الشعر في أثر الذنوب في القلوب قول ابن المبارك^(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ:

رَأَيْتُ الذَّنْبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ	وَيُورِثُهَا	الذَّلَّ	إِدْمَانُهَا
وَتَرَكْتُ الذَّنْبَ حَيَاةَ الْقُلُوبَ	وَحَيْرٌ	لِنَفْسِكَ	عِصْيَانُهَا



(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ، حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْهُمْ، برقم (٢٣٢٧٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، برقم (٦٠٦٩).

(٣) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٦ / ص ٣٣٦).

وَبَدْعَةٍ، وَغَفْلَةٍ، نِفَاقٍ وَالْحَسَدِ، الْكِبْرِ، كَذَا الشَّقَاقِ

يذكر الناظم في هذا البيت جملةً من مفسدات القلوب:

وأول هذه المفسدات: الأهواء والبدع.

والبدعة لغة: من بدع، يقال: ابتدع الشيء يتدعه، وتأتي على معنيين، أحدهما: ابتداء الشيء لا عن مثال سابق، والثاني: الانقطاع والكلال^(١).

والبدعة اصطلاحاً: «طريقة في الدين مخترعة تظاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية»^(٢)، فالبدعة ما أحدث في الدين، وليس له أصل في الشرع، لا من أدلته ولا من قواعده.

وقد قسّم العلماء البدع باعتبارات كثيرة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو محلّ نظر، فمن تقسيماتهم: البدعة الشرعية، والبدعة اللغوية^(٣)، ومن التقسيمات: البدعة الحقيقية، والبدعة الإضافية^(٤)، ومنها تقسيم البدعة إلى مكفّرة ومفسّقة، وأما تقسيم البدع وفق الأحكام التكليفية، وتقسيم البدعة إلى حسنّة وسيئة؛ فمردود، فالبدع كلها مذمومة مستقبحة، ولا يوجد في الشرع بدعة حسنّة^(٥).

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١١٦)، (ب د ع)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٢٢٩).

(٢) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ١ / ص ٤٣).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ١١٦).

(٤) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ٢ / ص ١٢٧).

(٥) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٣٢١)، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٢٦٦).



وقد ذمَّ الله الإحداث الذي وقع في الأمم السابقة، فقال تعالى عمن أحدث وابتدع الرهبانية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]. وقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ البدع مردودة، وهي من أبواب الضلال، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَخَذَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، وفي الصحيح أيضًا: «فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»^(٢).

ومن خطورة البدع قلة رجوع أصحابها إلى الهدى، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ»^(٣)، فهو يرى نفسه على حقٍّ وصواب، ويرى فعله مستحسنًا، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا قال طائفة من السلف منهم الثوري: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنَّ المعصية يُتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها»^(٤). ومن مخاطر البدع أنها تقود لبدع أكبر حتى تنتهي بالسيف، قال أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ابتدع رجلٌ بدعةً إلا استحلَّ السيف»^(٥)، وهي أيضًا طعنٌ مُبْطِنٌ في الشرع،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، وردَّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٦٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، باب العين من اسمه علي، علي بن عبد الله الفرغاني، برقم (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٢٠).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١١ / ص ٦٨٤).

(٥) ينظر: السنن، للدارمي، (م ١ / ص ٥٨).

فالدين قد اكتمل، ولسان حال المبتدع الاستدراك على الشارع.

قال ابن الماجشون رَحِمَهُ اللهُ: سمعت مالكا يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة زعم أن محمداً خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾» [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً^(١). وأن البدع وانتشارها سبب لإماتة السنن واندثارها، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن»^(٢)، فالبدع تفسد القلوب فساداً عريضاً وتورثها، الشك والزيف والحيرة والضيق كما جاء عن كثير من أهل الأهواء في سيرهم ومواقفهم، قال أبو بكر الوراق رَحِمَهُ اللهُ: «إذا غلب الهوى أظلم القلب»^(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فقلوب أهل البدع، والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر»^(٤)، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «فصاحب السنة حي القلب مستنير، وصاحب البدعة ميت القلب مظلمه»^(٥)، ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة للبدع، وحذروا من أهلها أشد تحذير، وأنكروا على من يجالسهم ويحاييهم ويقرب منهم؛ لأن مضرّة الأهواء من أشد المضارّ بعد الشرك، وأختم بأثرين: قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لا تجالس أهل الأهواء؛ فإن مجالستهم مُمرضة للقلوب»^(٦)، وقال الحسن

(١) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ١ / ص ٦١).

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٢١٣).

(٣) ينظر: ذم الهوى، للهروي، (ص ٢٩).

(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٢٣).

(٥) ينظر: اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، (م ١ / ص ١١).

(٦) ينظر: الشريعة، للأجري، برقم (١٣٣).



البصري رَحِمَهُ اللهُ: «لا تجالس صاحب بدعة؛ فإنه يُمرض قلبك»^(١).

وأما المفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيت؛ فهو الغفلة، وهو في اللغة: السَّهْوُ عن الشيء، يقال: غَفَلَ عنه يغفل غُفُولًا وَغَفْلَةً، وكما يُطلق على ترك الشيء سهوًا يُطلق على ترك الشيء عمدًا^(٢). والغفلة اصطلاحًا: سهوٌ يعتري الإنسان من قلة التحفظ واليقظ، وقيل: متابعة النفس على ما تشتهيه.

ولقد حذّرنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من الغفلة وطرائق الغافلين وطاعتهم، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، قال ابن القيم في صدد ذكر الغفلة والهوى وأثرهما على القلب: «الغفلة واتباع الهوى يطمسان نور القلب ويعميان بصره»^(٣). والغفلة من صفة أهل النار الذين شبههم الله بالأنعام، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، بل بيّن الربُّ جلَّ في علاه أنَّ الغفلة أحد أسباب الهلاك كما جاء في وصف فرعون وقومه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وذمَّ الله في كتابه الغافلين عن آياته، والغفلة داءٌ مهلك للقلب، فإذا

(١) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ١ / ص ٨٢).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٨٠١)، (غ ف ل)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١١ / ص ٤٩٧)، (غ ف ل).

(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٤١).

أصاب القلب سها الإنسان عن ذكر ربّه، وفقد حضور القلب في العبادة، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ»^(١)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته للنساء: «عَلَيْكُمْ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ وَاعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ، فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتُ مُسْتَنْطَقَاتٍ، وَلَا تَغْفُلْنَ فَتَنْسِينَ الرَّحْمَةَ»^(٢)، يقول ابن القيم رحمه الله: «على قدر غفلة العبد عن الذكر يكون بُعْده عن الله»^(٣)، وقال أيضا: «إِنَّ الْغَافِلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَحْشَةٌ لَا تَزُولُ إِلَّا بِالذِّكْرِ»^(٤)، فالغفلة عن ذكر الله سببٌ لقسوة القلب وإصابته بالصدأ، «وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنوب، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر»^(٥)، وقال أيضا: «خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر»^(٦).

وما أجمل ما سطره ابن القيم رحمه الله عن صراع كتائب اليقظة والغفلة في القلب لأجل قيام الليل، فاليقظة تحثُّ والغفلة تُسوِّف، قال: «إذا طلع نجمُ الهمة في ظلام ليل البطالة وردفه قمر العزيمَة أشرقت أرض القلب بنور ربها إذا جن الليل تغالب النوم والسهر فالخوف والشوق في مقدّم عسكر اليقظة والكسل والتواني في كتيبة الغفلة فإذا حمل العزم حمل على الميمنة وانهمزت جنود التفريط فما يطلع الفجر إلا وقد قُسمت السهمان وبُردت الغنيمَة

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب، برقم (٣٨٢٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب، برقم (٣٩٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٠٨٧).

(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٦٢).

(٤) ينظر: المصدر السابق، (ص ٦٢).

(٥) ينظر: المصدر السابق، (ص ٤٠).

(٦) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٣).



لأهلها»^(١)، فيقظة القلب من أول المنازل وبدايتها بطرد الغفلة وسواها من القلب، «فأول منازل العبودية اليقظة، وهي انزعاج القلب لروعة الانبياء من رعدة الغافلين، ولله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها، وما أشد إيعانها على السلوك! فمن أحس بها فقد أحس -والله- بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمر لله بهمة إلى السفر إلى منازل الأولى، وأوطانه التي سبي منها.

فَحَيَّ عَلَى جَنَاتٍ عَذِيٍّ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُحَيِّمُ
وَلَكِنَّا سَبِيَّ الْعُدُوِّ فَهَلْ تَرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ^(٢)

ومن جميل وصاياه رحمه الله: «يا من هبت على قلبه جنوب المجانبة، فتكاثفت عليه غيوم الغفلة، فأظلم أفق المعرفة: لا تياس، فالشمس تحت الغيم، لو تصاعد منك نفس أسف استحالت شمالاً فتقطع السحاب، فبانَت الشمس تحتها»^(٣).

وأما المفسد الثالث من مفسدات القلوب في هذا البيت فهو النفاق، وهو في اللغة: من مادة «نفق» التي تدل على الإخفاء وعدم الإظهار، فالنفق سرب في الأرض له مخلص إلى مكان آخر، وقيل لأحد جحري اليربوع: النافقاء؛ لأنه يكتمه ويظهر غيره، فإذا أتى من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانفتق^(٤). وفي الاصطلاح: إظهار الإيمان وكتمان الكفر^(٥). وينقسم النفاق

(١) ينظر: المصدر السابق، (ص ٥٢).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ١٤٢).

(٣) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ٢٣٧).

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٠٣٨)، (ن ف ق)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٠ / ص ٣٥٩)، (ن ف ق).

(٥) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ٢٤٥).



إلى قسمين: النفاق الاعتقادي الأكبر، والنفاق العملي الأصغر^(١).

لقد رتب الله على النفاق أشد العقاب فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقد وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى النفاق بالمرض: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، قال ابن القيم: «قد نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها، وغلبت القصور السيئة على إراداتهم ونياتهم فأفسدتها»^(٢)، وبسبب فساد قلوبهم يَصْعُبُ عليهم ذكرُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وفي المقابل يستسيغ الغناء، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغناء يُنبت النفاق في القلب»^(٣)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن علامات النفاق: قلة ذكر الله، والكسل عند القيام إلى الصلاة، ونقر الصلاة، وقيل أن تجد مفتونًا بالغناء إلا وهذا وَصْفُهُ»^(٤)، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا من علامة النفاق: قلة ذكر الله. وكثرة ذكر الله أمانٌ من النفاق، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أكرم من أن يتبلى قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى»^(٥). وأهل النفاق وإن كان ظاهرهم حسنًا إلا أن القلوب مريضة خبيثة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحسنُ الناس أجسامًا، وأخلبهم لسانًا، وأطفهم بيانًا، وأخبثهم قلوبًا،

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ٧ / ص ٥٢٤)، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٣٧٥).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٤٩).

(٣) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٥٠٩٨).

(٤) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٢٥٠).

(٥) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ١١٠).



وأضعفهم جنائنا، فهم كالخشب المسندة التي لا ثمر لها»^(١).

ولخطورة النفاق كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يخافون على أنفسهم منه، قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانٍ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»^(٢)، وعن جبير بن نفير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَهُوَ فِي آخِرِ صَلَاتِهِ، وَقَدْ فَرَّغَ مِنَ التَّشْهَدِ يَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ النِّفَاقِ، فَأَكْثَرَ التَّعَوَّذَ مِنْهُ، فَقَالَ جَبِيرٌ: وَمَا لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ أَنْتَ وَالنِّفَاقَ؟ فَقَالَ: «دَعْنَا عَنْكَ، دَعْنَا عَنْكَ، فَوَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُقَلِّبُ عَنْ دِينِهِ فِي السَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ، فَيُخْلَعُ مِنْهُ»^(٣). قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «تَاللَّهِ لَقَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُ الْقَوْمِ إِيْمَانًا وَيَقِينًا، وَخَوْفُهُمْ مِنَ النِّفَاقِ شَدِيدٌ، وَهُمْ لَذَلِكَ ثَقِيلٌ، وَسِوَاهُمْ كَثِيرٌ لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانَهُمْ حُنَاجِرَهُمْ، وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنْ إِيْمَانَهُمْ كإِيْمَانِ جَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»^(٤). وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ هُنَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّفَاقَ، وَيَشْتَدُّ قَلْقُهُمْ وَجَزَعُهُمْ مِنْهُ، فَالْمُؤْمِنُ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ النِّفَاقَ الْأَصْغَرَ، وَيَخَافُ أَنْ يَغْلِبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْخَاتِمَةِ، فَيُخْرِجَهُ إِلَى النِّفَاقِ الْأَكْبَرِ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ دَسَائِسَ الشُّوْرِ الْخَفِيَّةِ تُوجِبُ سُوءَ الْخَاتِمَةِ»^(٥).

فالعاقل يخاف على نفسه من النفاق، ويسأل الله السلامة منه، فالقلوب تتقلب، «سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا تَقُولُ فِيمَنْ لَا يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ النِّفَاقَ؟،

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقا، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، (م ١ / ص ٢٦).

(٣) ينظر: السير، للذهبي، (م ٦ / ص ٣٨٢).

(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٥٨).

(٥) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٧٤).



قال: ومن يأمن على نفسه النفاق»^(١).

والمفسد الرابع من مفسدات القلوب في هذا البيت هو الحسد، وفي اللغة مِنْ حَسَدِهِ يَحْسُدُهُ وَيَحْسُدُهُ، حَسَدًا وَحُسُودًا وَحَسَادَةً، تَمَنَّى أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَيْهِ نِعْمَتُهُ وَفَضِيلَتُهُ، أَوْ يُسْلِبَهُمَا، وحسده الشيء وعليه^(٢). واصطلاحًا: تمنّي زوال نعمة عن مستحق لها. وقيل: هو ظلم ذي النعمة بتمني زوالها وصيرورتها إلى الحاسد^(٣).

والفرق بينه وبين الغبطة: أَنَّ الغِبطَةَ هو أن يتمني مثل النعمة التي على غيره من غير زوالها عنه^(٤). والحقْدُ أوسع من الحسد، وهو أحد أسباب الحسد، وحقيقته إضرار الشر، وتوقعه كل وقت فيمن وجدت فيه، فلا يزال القلب أثره^(٥). والعائن أخص من الحاسد؛ لأنه قد يصيب من لا يحسده^(٦).

ولقد حذرت الشريعة من الحسد، ودعت للاستعاذة من شر الحاسد، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى في ذكر الاستعاذات في سورة الفلق: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]. قال القرطبي في تفسير الآية: «والحسدُ

(١) ينظر: المصدر السابق، (ص ٣٧٨).

(٢) ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ٣٥٣)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٨ / ص ٢٥)، (ح س د).

(٣) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ٨٧)، والتوقيف، للمناوي، (ص ١٣٩)، والمفردات، للراغب، (ص ١١٧).

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ٦ / ص ٩٧)، والكلديات، للكفوي، (ص ٦٧٢).

(٥) ينظر: الروح، لابن القيم، (ص ٢٥١).

(٦) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٣١).



مذمومٌ، وصاحبه مغمومٌ، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطبَ...»، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(١). قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُلُّ النَّاسِ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَرْضِيَهُ إِلَّا حَاسِدَ نِعْمَةٍ، فَإِنَّهُ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُهَا»^(٢).

والحسد يؤدي إلى غيره من الغيبة والتجسس والعداوة والبغى، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحسد يُوجب البغى كما أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَمَّنْ قَبَلْنَا مِنْ آلِ عِمْرَانَ أَنَّهُمْ اخْتَلَفُوا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، فَلَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمْ لِعَدَمِ الْعِلْمِ، بَلْ عَلِمُوا الْحَقَّ، وَلَكِنْ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا يَبْغِي الْحَاسِدُ عَلَى الْمَحْسُودِ»^(٣). وهي تحجب عن الحق وقبوله، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَكِنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْكَبْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مَانِعٌ مِنْ اسْتِسْلَامِ الْقَلْبِ وَانْقِيَادِهِ وَمَحَبَّتِهِ»^(٤). وصاحب الحسد قد يموت من الكمد والحسرة مع الاسترسال في هذا الداء الذي يهلك القلب، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَإِنَّ الْحَسَدَ كَالنَّارِ، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ أَكَلَ بَعْضُهَا بَعْضًا»^(٥)، وفعل الحاسد يسرُّ الشيطان، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحاسدُ شبيهٌ بإبليسَ، وهو في الحقيقة مِنْ أَتْبَاعِهِ؛ لِأَنَّهُ يَطْلُبُ مَا يَحِبُّهُ الشَّيْطَانُ مِنْ فُسَادِ النَّاسِ، وَزَوَالِ نِعَمِ اللَّهِ عَنْهُمْ، كَمَا أَنَّ إِبْلِسَ حَسَدَ آدَمَ لَشَرَفِهِ وَفَضْلِهِ، وَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ لَهُ حَسَدًا،

- (١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، برقم (٢٥٦٣).
 (٢) ينظر: التاريخ، لابن عساكر، (م ٥٩ / ص ٢٠٠).
 (٣) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ١٢٧).
 (٤) ينظر: المصدر السابق، (م ٧ / ص ٣٥٣).
 (٥) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٤٠).



فالحاسد من جند إبليس^(١). يقول الماوردي رَحِمَهُ اللهُ في أثر الحسد في القلب: «وَأَمَّا الْأَخْصَّ بِالْبَاطِنِ فَكَدُّ الْقَلْبِ بَغَمِهِ وَهَدُّ الْجَسَدِ بِسَقَمِهِ، لَا يَجِدُ لِقَلْبِهِ سَلَوًا، وَلَا لَجَسَدِهِ هُدُوًا، وَهَذَا عَذَابٌ جَتَّهْ يَدَاهُ، وَالْمَحْسُودُ قَرِيرُ الْعَيْنِ، وَادْعُ الْجَسَدَ، قَدْ ضُرَّ وَلَمْ يَسْتَضِرْ. وَقِيلَ: لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ شَيْءٌ أَعْدَلُ مِنَ الْحَسَدِ؛ لِأَنَّهُ يَبْدَأُ بِإِضْرَارِ الْحَاسِدِ قَبْلَ الْمَحْسُودِ»^(٢).

والمفسد الخامس من مفسدات القلوب في هذا البيت: الكبر، وهو في اللغة: بمعنى العظمة والتجبر^(٣)، وشرعاً: «الْكِبَرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَعَمَظُ النَّاسِ»^(٤). وقيل: أَنْ يَرَى نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِنْ غَيْرِهِ^(٥). والتكبر على نوعين: تكبر على الحق، وتكبر على العباد.

والكبر من أمراض القلوب الخطيرة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْضُضُ لَهُ مَرْضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا تَرَامِيَا بِهِ إِلَى التَّلَفِ وَلَا بَدَ: وَهُمَا الرِّيَاءُ، وَالْكِبَرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودَوَاءُ الْكِبَرِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾».

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» تدفع الرياء، «وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» تدفع الكبرياء^(٦). وقال رَحِمَهُ اللهُ: «أَصُولُ الْخَطَايَا كُلِّهَا ثَلَاثَةٌ: الْكِبَرُ، وَهُوَ الَّذِي أَصَارَ إِبْلِيسَ إِلَى مَا أَصَارَهُ،

(١) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٢٣٤).

(٢) ينظر: تسهيل النظر، للماوردي، (م ١ / ص ١٢٠).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٩١٦)، (ك ب ر)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٥ / ص ١٢٩)، (ك ب ر).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، برقم (٩١).

(٥) ينظر: الكليات، للكفوي، (ص ٢٨).

(٦) ينظر: التفسير القيم، لابن القيم، (م ١ / ص ٥١).



والحرص، وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْحَسَدُ، وَهُوَ الَّذِي جَرَّأَ أَحَدَ ابْنَيْ آدَمَ عَلَى أَخِيهِ، فَمَنْ وُقِيَ شَرَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فَقَدْ وُقِيَ الشَّرَّ^(١). وقال الماوردي: «الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل»^(٢)، ولقد تَوَعَّدَ اللَّهُ أَهْلَ الْكِبَرِ بِالصَّرْفِ عَنِ الْآيَاتِ، فَلَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهَا وَلَا يَنْتَفِعُونَ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، أي: «سأمنع فهم الحجج والأدلة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي»^(٣)، وَتَوَعَّدَهُم بِالطَّبَعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وجعل النار مثواهم، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

والكبر من أسباب المنع من دخول الجنة، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»^(٤)، وَيُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي غَايَةِ الذُّلِّ وَالصَّغَارِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُورِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيَسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْبَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عَصَاةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ»^(٥).

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٥٨).

(٢) ينظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، (ص ٢٣١).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ٣٢٩).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، برقم (٩١).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

باب، برقم (٢٤٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٢٩١١).



والشيطان قد يُدخل الكِبَر من أبواب العُجب الكثيرة، كإعجاب المرء بعلمه وعبادته، والفطن من يقف عند هذه الخواطر، فيقطعها من بدايتها حتى لا تستقر في القلب، قال أيوب العطار رَحِمَهُ اللهُ: «سمعت بشر بن الحارث يقول: حدثنا حماد بن زيد، ثم قال: أستغفر الله، إِنَّ لذكر الإسناد في القلب لَحِيْلًا»^(١)، وكلما عظم في القلب جانبُ التعلُّق بالله والإخلاص كان ذلك مخلصًا للعبد من الكبر، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وَلَنْ يَسْتَغْنِي الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَلَا يَكْرَهُ إِلَّا مَا يَبْغِضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ، وَلَا يُؤَالِي إِلَّا مَنْ وَالَاهُ اللهُ، وَلَا يُعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَاهُ اللهُ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَبْغِضُ شَيْئًا إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُعْطِي إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا لِلَّهِ، فَكُلَّمَا قَوِيَ إِخْلَاصُ دِينِهِ لِلَّهِ كَمَلَتْ عُبودِيَّتُهُ وَاسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِكَمَالِ عُبودِيَّتِهِ لِلَّهِ يُبْرِئُهُ مِنَ الْكِبَرِ وَالشُّرْكِ»^(٢).

والمفسد السادس في هذا البيت هو الشقاق والمراء والجدال المذموم.

وفي اللغة: الجدُّ: اللَّد في الخصومة، والقدرة عليها، والاسترسال فيها، وجادلَه، أي خاصَمَه، مجادَلَةً وجِدالًا، والمراء: الجدال^(٣)، تقول: مَارَيْتَه أُمَارِيه مُمَاراة ومِراء: جادلته^(٤).

(١) ينظر: السير، للذهبي، (م ٧ / ص ٤٦١).

(٢) ينظر: الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، (م ٥ / ص ١٩١).

(٣) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٥٧١)، (ج دل)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٠٥)، (ج دل).

(٤) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١٥ / ص ٢٧٨)، (م ري)، والمصباح المنير، للفيومي، (م ٢ / ص ٥٦٩)، (م ري).



والجدال في الاصطلاح: المفاوضة على سبيل المَنَازعة والمُغالبة^(١)، وقيل: المبالغة في الخصومة والمناظرة^(٢). والمراء في الاصطلاح: الطعن في كلام الآخر لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير^(٣)، وقال أهل العلم: المراء والجدال سواءٌ غير أن المراء مذموم مطلقاً؛ لأنه مخاصمة في الحق بعد ظهوره^(٤).

والجدال إن كان للوقوف على الحق وتقريره فهو محمود، وإن كان الجدال في مدافعة الحق، أو كان بغير علم كان مذموماً، وهو المقصود في نظرنا، وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في إباحته وذمه^(٥).

وقد جاءت النصوص محذرة من الجدال المذموم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي ضُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وهنا ثم ترابط بين الكبر والجدال، فالكبر باعث على الجدال المذموم، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»^(٦).

(١) ينظر: المفردات، للراغب، (ص ١٨٩).

(٢) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي، (م ٤ / ص ٩٩).

(٣) ينظر: التعريفات للجرجاني، (ص ٢٠٩).

(٤) ينظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، (ص ١٥٨).

(٥) ينظر: الكبائر، للذهبي، (ص ٢٢١).

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ومن سورة الزخرف، برقم (٣٥٧٤)، وابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب اجتناب البدع والجدل، برقم (٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٤١).



قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا أراد الله بقوم شرًّا ألزمهم الجدالَ، ومنعهم من العمل»^(١). وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُ الْخَصِمُ»^(٢).

والجدال والمراء والخصومة لها الأثر البالغ في إفساد القلوب، فهي تشتت القلب وتُقَسِّيه، مع ضعف الدين، قال بعض السلف: «ما رأيت شيئاً أذهب للدين، ولا أنقص للمروءة، ولا أضيع للذة، ولا أشغل للقلب من الخصومة»^(٣)، قال الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «المراء في العلم يُقَسِّي القلبَ، ويورث الضغائن»^(٤)، وقال ابن بطة رَحِمَهُ اللهُ في آثار الجدال المذموم: «إني لم أر الجدال والمناقضة والخلاف والمماحلة، والأهواء المختلفة، والآراء المخترعة من شرائع النبلاء، ولا من أخلاق العقلاء، ولا من مذاهب أهل المروءة، ولا مما حُكِيَ لنا عن صالحِي هذه الأمة، ولا من سير السلف، ولا من شيمة المرُضِيِّين من الخلف، وإنما هو لهو يُتَعَلَّم، ودراية يُتَفَكَّه بها، ولذة يُسْتَرَاخ إليها، ومهارشةُ العقول، وتدريبُ اللسان بِمَحَقِّ الأديان، واستمتاعٌ بظهور حُجَّةِ المخاصم، وقصدٌ إلى قهر المناظر، والمغالطة في القياس، وبهت في المقولة، وتكذيب الآثار، وتسفيه أحلام الأبرار، ومكابرة لنص التنزيل، وتهاون بما قاله الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونقض لعقدة الإجماع، وتشيت الألفة، وتفريق لأهل الملة، وشكوك تدخل على الأمة، وتوغير للقلوب، وتوليد للشحناء في النفوس، عصَمَنَا اللهُ وإياكم من ذلك، وأعادنا من مجالسة أهل الأهواء»^(٥).



- (١) ينظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح، (م ١ / ص ١٨).
- (٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: (وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ)، برقم (٢٤٥٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب في الألد الخصم، برقم (٢٦٦٨).
- (٣) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ١٠ / ص ٢٩٧).
- (٤) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٨٤٨٨).
- (٥) ينظر: الإبانة، لابن بطة، (م ٢ / ص ٥٣١).



ثم الفضول، أو هَوَى الْمُحَقَّرَةِ والعشيق، والوسوسة المَصَغَّرَةُ

يذكر الناظم في هذا البيت أيضًا جملةً من مُفَسِّدَاتِ الْقُلُوبِ:

أولها الفضول، وهو في اللغة: من فَضَّلَ، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيء^(١)، واصطلاحًا: الزيادة عن الحد المطلوب في الكلام والمخالطة والنوم والأكل والشرب والضحك، ولا شك أن هذه المباحات لها حدٌّ معينٌ لو تجاوزته المرء رجع عليه بالضرر، وعلى قلبه بالقسوة.

فالفضول يفسد القلب ويُفسده، فمن زاد في النوم أو الخلطة أو الطعام أو الضحك؛ حصلت له الغفلة، وربما تبلد القلب أو مات، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة»^(٢). والنصوص في ذم الفضول كثيرة، عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: تَجَشَّأَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «كُفَّ عَنَّا جُشَاءُكَ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شَبَعًا فِي الدُّنْيَا، أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣)، قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالنَّهْيُ عَنِ الْجُشَاءِ نَهْيٌ عَنْ سَبِيهِ، وَهُوَ الشَّبَعُ، وَهُوَ مَذْمُومٌ طَبًّا وَشَرْعًا، كَيْفَ وَهُوَ يَقَرِّبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَيَهَيِّجُ النَّفْسَ إِلَى الطَّغْيَانِ، وَالْجُوعُ يَضِيقُ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ، وَيَكْسِرُ سَطْوَةَ النَّفْسِ، فَيَنْدَفِعُ شَرُّهُمَا»^(٤). قال ابن القيم

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٨٤٨)، (ف ض ل).

(٢) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٢).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

باب، برقم (٢٤٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٤٣).

(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٥ / ص ٨).



رَحْمَةُ اللَّهِ: «ولو تَغَذَّى القلب بالمحبة لذهبت عنه بطنه الشهوات»^(١)، فكثرة الطعام تؤدي إلى البطنة، والبطنة تذهب الفطنة، وتقسي القلب، وتورث الغفلة، يقول الشافعي رَحْمَةُ اللَّهِ: «الشبع يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة»^(٢)، وفي السنن: «ولا تكثير الضحك؛ فإن كثرة الضحك تُميت القلب»^(٣)، أي: إن كثرة الضحك تورث قسوة القلب، والانغماس في اللهو، والغفلة عن الآخرة.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالها»^(٤)، وليس كثرة النوم والاسترسال في الكسل من سمات الهارب من النار والطالب للجنة، يقول ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ: «وأنتع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه»^(٥)، ويقول ابن جماعة رَحْمَةُ اللَّهِ: «ومن رام الفلاح في العلم، وتحصيل البغية منه، مع كثرة الأكل والشرب والنوم؛ فقد رام مستحيلاً في العادة»^(٦). وعن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؛ أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة؛ الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال:

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٧٧).

(٢) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساکر، (م ٥١ / ص ٣٩٤).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، برقم (٢٣٠٥)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الورع والتقوى، برقم (٤٢١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٠٦).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة جهنم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب منه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٣).

(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٦٠).

(٦) ينظر: تذكرة السامع، لابن جماعة، (ص ٧٤).



«الْمُتَكَبِّرُونَ»^(١)، والثرثارون هم الذين يُكثرون الكلامَ تكلفًا وتشدقًا.

قال عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ اللهُ: «إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَعِدُونَ فَضُولَ الْكَلَامِ مَا عَدَا كِتَابَ اللَّهِ، أَوْ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مَنكَرٍ، أَوْ أَنْ تَنْطِقَ فِي مَعِيشَتِكَ الَّتِي لَا بَدَلَ لَكَ مِنْهَا»^(٢)، ويقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «خَصَلَتَانِ تُقْسِيَانِ الْقَلْبَ: كَثْرَةُ الْكَلَامِ، وَكَثْرَةُ الْأَكْلِ»^(٣)، قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «كَثْرَةُ الْكَلَامِ تَتَوَلَدُ عَنْ أَمْرَيْنِ: إِمَّا طَلَبَ رِئَاسَةٍ يَرِيدُ أَنْ يَرَى النَّاسَ عِلْمَهُ وَفَصَاحَتَهُ، أَوْ قِلَّةَ الْعِلْمِ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ»^(٤).

وهكذا في باب الْخِلَاطَةِ، فيحذر الإنسانُ من سُرَّاقِ الْقُلُوبِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَكَ بِالدُّنْيَا، وَيُأَخِّرُونَكَ عَنِ الْآخِرَةِ، فَاخْتَرِ صَحْبَةَ الْأَبْرَارِ، وَحَازِرِ الْأَشْرَارِ، وَفِي الْوَصِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»^(٥)، فَخُذْ مِنَ الْخِلَاطَةِ الْحَدَّ الْمُنَاسِبَ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَكَمْ جَلَبَتِ خِلَاطَةُ النَّاسِ مِنْ نَقْمَةٍ، وَدَفَعَتْ مِنْ نِعْمَةٍ، وَأَنْزَلَتْ مِنْ مَحْنَةٍ، وَعَطَّلَتْ مِنْ مَنَحَةٍ، وَأَحَلَّتْ مِنْ رَزِيَّةٍ، وَأَوْقَعَتْ مِنْ بَلِيَّةٍ، وَهَلْ آفَةُ النَّاسِ إِلَّا النَّاسُ؟!»^(٦).

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في معالي الأخلاق، برقم (٢٠١٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٧٩١).

(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٢٧٤).

(٣) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٤٨ / ص ٤١٥).

(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٤ / ص ٣٥٠).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في صحبة المؤمن، برقم (٢٣٩٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، برقم (٤٨٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣٠٣٦).

(٦) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ٢٦٤).

والمفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيت حبُّ الدنيا المحقَّرة، والدنيا نقيض الآخرة، وسُمِّيت الدنيا لدنَّوها، والنسبة إليها دنياويٌّ^(١) ودُنْيويٌّ ودُنْييٌّ. والقصد من هذا المفسد حبُّ الدنيا وإيثارها على الآخرة، وطول الأمل والحرص، وجعل الدنيا غايةً؛ مما يفتح أبواب الطغيان والشرور.

ولِحُبِّ الدنيا آثارٌ وخِمة على القلب، ولو لم يكن له من الأثر إلا منازعة حب الآخرة ومحبة الله لكفى، فكيف وهو بريد الطغيان، ويفتح أبواب الشيطان، ويُورث الغفلة عن ذكر الرحمن، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في مضارِّ حبِّ الدنيا: «وأقلُّ ما في حبِّها أنه يُلهي عن حبِّ الله وذكره، ومن ألهاه ماله عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلبُ عن ذكر الله سكنه الشيطان، وصرفه حيث أراد»^(٢)، ويقول رَحِمَهُ اللهُ: «مفتاح كل خير: الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شرٍّ: حب الدنيا وطول الأمل»^(٣)، وعن أبي موسى الأشعريَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَاتَرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى»^(٤)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فَعَشَقَهَا وَمَحَبَّتُهَا تَضُرُّ بِالْآخِرَةِ، وَلَا بَدَّ، كَمَا أَنَّ مَحَبَّةَ الْآخِرَةِ تَضُرُّ بِالدُّنْيَا»^(٥)، وقال رَحِمَهُ اللهُ: «لَا تَدْخُلُ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِي قَلْبٍ فِيهِ حُبُّ الدُّنْيَا إِلَّا كَمَا يَدْخُلُ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ»^(٦)، وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣٦٦)، (دن و)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ١٦٥٦)، (دن و).

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٦).

(٣) ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم، (ص ٤٨).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، برقم (٢٠٠١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (٣٢٤٧).

(٥) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ١٨٨).

(٦) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٣).



صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»^(١)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمِنْ أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيتُ الشمل، وتفريقُ القلوب، وكونُ الفقر نُصَبَ عَيْنِي الْعَبْدَ لَا يَفَارِقُهُ، وَلَوْ لَا سَكْرَةُ عِشَاقِ الدُّنْيَا بِحَبِّهَا لَا سْتَغَاثُوا مِنْ هَذَا الْعَذَابِ»^(٢).

كما أَنَّ حَبَّ الدُّنْيَا يُورِثُ مَوْتَ الْقَلْبِ حَتَّى تُصِيرَ الْعِبَادَاتُ ظَاهِرِيَّةً جَوْفَاءً لَا أَثَرَ لَهَا عَلَى الْمَنُهِومِ بِدَنِيَاهُ، يَقُولُ ابْنُ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَثَلُ الْمُحِبِّ لَهَا - وَلَوْ كَابِدَ الْعِبَادَةِ - كَمَثَلِ نَاشِرِ الْأَرْضِ، يَرْفَعُ رِجْلًا وَيَضَعُ أُخْرَى، وَمِنْ مَكَانِهِ لَا يَبْرَحُ، وَكَذَلِكَ الَّذِي شُغِلَ بِحَبِّ الدُّنْيَا قَلْبُهُ، وَبِالْعِبَادَةِ جَوَارِحُهُ، تَرَاهُ طَوَّلَ عَمْرِهِ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِظَوَاهِرِهِ، وَيَبْعَدُ عَنْهُ بِقَلْبِهِ»^(٣)، وَحَسْبُ الْعَاقِلِ مِنَ الدُّنْيَا زَادُ الْمَسَافِرِ، وَكُنْزُ الْقِنَاعَةِ، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَالَ الْحَسَنُ: ابْنُ آدَمَ، لَا تَعْلُقْ قَلْبَكَ فِي الدُّنْيَا، فَتَعْلِقَهُ بِشَرِّ مَعْلُوقٍ، اقْطَعْ حَبَالَهَا، وَغَلِّقْ أَبْوَابَهَا، حَسْبُكَ يَا بَنَ آدَمَ مِنْهَا مَا يَبْلُغُكَ الْمَحَلَّ»^(٤).

وَمِنْ صُورِ حَبِّ الدُّنْيَا حُبُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ وَالشَّرَفِ وَالشُّهُرَةِ^(٥)، وَطَلَبُ

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ، أَبْوَابُ صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالرَّقَائِقِ وَالْوَرَعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ، بِرَقْمِ (٢٤٦٥)، وَابْنُ مَاجَهَ فِي سُنَنِهِ، أَبْوَابُ الزُّهْدِ، بَابُ الْهَمِّ بِالدُّنْيَا، بِرَقْمِ (٤١٠٥).

(٢) يَنْظُرُ: عِدَّةُ الصَّابِرِينَ، لِابْنِ الْقَيْمِ، (ص ١٨٦).

(٣) يَنْظُرُ: التَّذَكُّرَةُ فِي الْوَعْظِ، لِابْنِ الْجُوزِيِّ، (ص ٣٦).

(٤) يَنْظُرُ: عِدَّةُ الصَّابِرِينَ، لِابْنِ الْقَيْمِ، (ص ١٩٣).

(٥) لَقَدْ أَجَادَ وَأَفَادَ وَأَبْدَعَ الْحَافِظُ ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ فِي الْحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ الْآفَاتِ وَأَنْوَاعِهَا وَمَخَاطِرِهَا فِي كِتَابِهِ الْمَدْمَشُ «شَرْحُ حَدِيثِ (مَا ذُبَّانُ جَائِعَانِ)».

الدنيا بعمل الآخرة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصاص: ٨٣].
وعَنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ذُبَّانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»^(١)، يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ حِرْصَ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ: إِفْسَادُهُ لِدِينِهِ لَيْسَ بِأَقْلَ مِنْ إِفْسَادِ الذَّبَّيْنِ لِهَذِهِ الْغَنَمِ؛ بَلْ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَسَاوِيًّا، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ، يَشِيرُ إِلَى أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنْ دِينِ الْمُسْلِمِ مَعَ حِرْصِهِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْقَلِيلُ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنَ الْغَنَمِ مَعَ إِفْسَادِ الذَّبَّيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ فِيهَا إِلَّا الْقَلِيلُ، فَهَذَا الْمَثَلُ الْعَظِيمُ يَتَضَمَّنُ غَايَةَ التَّحْذِيرِ مِنْ شَرِّ الْحِرْصِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ فِي الدُّنْيَا»^(٢)، قَالَ مَطَرٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ أَقْبَحَ الرِّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا أَنْ تُطْلَبَ بِعَمَلِ الْآخِرَةِ»^(٣)، يَقُولُ ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَصْلُ مَحَبَةِ الْمَالِ وَالشَّرَفِ حُبُّ الدُّنْيَا، وَأَصْلُ حُبِّ الدُّنْيَا اتِّبَاعُ الْهَوَى»^(٤).

والمفسد الثالث من مفسدات القلوب في هذا البيت هو العشق، والعشق

هو: فَرَطُ الْحُبِّ، وَتَجَاوُزُ حَدِّ الْمَحَبَةِ، تَقُولُ: عَشِقَ يَعْشُقُ عِشْقًا وَعَشَقًا، وَيُقَالُ: امْرَأَةٌ عَاشِقٌ أَيْضًا^(٥)، قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعروف من استعمال

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (١٧١٠).

(٢) ينظر: شرح حديث: (ما ذبَّان جائعان)، لابن رجب، (ص ٣٩).

(٣) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٦٩٣٠).

(٤) ينظر: شرح حديث: (ما ذبَّان جائعان)، لابن رجب، (ص ٧١).

(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٧٧٥)، (ع ش ق)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٠ / ص ٢٥١)، (ع ش ق).



هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح، مثل حب الآدمي مثله ممن يُستمتع به، من امرأة أو صبي، فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظ في محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغير ذلك، ولا في محبة آدمي لغير صورته، مثل محبة الآدمي لعلمه ودينه وشجاعته وكرمه وإحسانه ونحو ذلك^(١). وفي هذا الكلام فائدة لطيفة، وهو بيان خطأ مَنْ أطلق العشق في العلاقة بين العبد والرب!

فالعشق المحرّم من أخطر المسالك؛ إذ إنّه يؤوّل بالقلب إلى المهالك، بل هو سُكْرٌ للقلوب، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وبوابة الفجور والزنا، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّنا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَرَزْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَزَنَا اللِّسَانِ الْمُنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ»^(٢)، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو -لَعَمْرُ اللَّهِ- الداءُ العُضال، والسّم القاتل الذي ما عَلَقَ بقلبٍ إلا وعزّ على الوريّ خلاصه من إيساره، ولا اشتعلت ناره في مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره»^(٣).

ومفاسد العشق على القلوب كثيرة، من أخطرها ما يصل إلى درجة التعبد، حتى يصير العاشق عبداً لمعشوقه، ويقع في شرك المحبة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ عِشْقَ الصُّورِ المحرّمة نوع تعبد لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب، وتمكّن منه؛ صار تَتِيماً،

(١) ينظر: قاعدة في المحبة، لابن تيمية، (ص ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، برقم (٦٢٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره، برقم (٢٦٥٧).

(٣) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ٣١٧).

والتيمم التعبد، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه، وكثيراً ما يغلب حبه وذكره والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثار محابه على حب الله وذكره، والسعي في مرضاته، بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقاً بمعشوقه من الصور، كما هو مُشاهد، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عزَّ وجلَّ يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله، وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تبارك وتعالى، فيصير أثر عنده من ربه: حباً، وخضوعاً، وذلاً، وسمعاً، وطاعة»^(١). وقال رحمه الله عن العشق: «فإنه يفسد القلب بالذات، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال، وفسد ثغر التوحيد»^(٢)، يقول ابن الجوزي رحمه الله في تعدد مفاسد العشق: «وأما ضرر العشق في الدنيا فإنه يُورث الهمَّ الدائم، والفكرَ اللازم، والوسواس والأرق، وقلَّةَ الطعام، وكثرة السهر، ثم يتسلط على الجوارح فتنشأ الصُّفرة في البدن، والرَّعدة في الأطراف، واللجلجة في اللسان، والتحول في الجسد، فالرأي عاطل، والقلب غائب عن تدبير مصلحته، والدموع هواطل، والحسرات تتابع، والزفَّرات تتوالى، والأنفاس لا تمتد، والأحشاء تضطرم، فإذا غُشي على القلب إغشاء تاماً أخرجت إلى الجنون، وما أقربه حينئذ من التلف! هذا وكم يجني من جناية على العرض، ووهن الجاه بين الخلق! وربما أوقع في عقوبات البدن وإقامة الحد»^(٣).

ولابن تيمية رحمه الله كلامٌ نافعٌ في الردِّ على من يُبرِّر العشق ويذكر محاسنه، يقول: «فإن الذي يُورثه العشق من نقص العقل والعلم، وفساد الخلق والدين،

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م / ١ ص ٦٤).

(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ٣١٣).

(٣) ينظر: ذم الهوى، لابن الجوزي، (ص ٢٤٦).



والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا: أضعافُ ما يتضمنه من جنس المحمود، وأصدقُ شاهد على ذلك ما يُعرف من أحوال الأمم وسماع أخبار الناس في ذلك، فهو يُغني عن معاينة ذلك وتجربته، ومن جرَّب ذلك أو عاينه اعتَبَر بما فيه كفاية، فلم يوجد قطُّ عشقٌ إلا وضرُّه أعظمُ من منفعته^(١). وأختم بكلام بديع لابن القيم رَحِمَهُ اللهُ حَوْلَ مغَبَّةِ عشق الصور، قال: «وَتِلْكَ -لَعَمْرُ اللهِ- الْفِتْنَةُ الْكَبْرَى، والْبَلِيَّةُ الْعَظْمَى التي استعبدت النفوسَ لغير خَلْقِهَا، وملَّكتِ القلوبَ لمن يسومها الهوانُ من عشاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلى مُوالاةِ كُلِّ شيطانٍ مريدٍ، فصيّرت القلبَ للهوى أسيرًا، وجعلته عليه حاكمًا وأميرًا، فأوسعت القلوبَ محنةً، وملأتها فتنةً، وحالت بينها وبين رُشدِها، وصرفتها عن طريق قصدِها.

ونادت عليها في سُوق الرقيق فباعتها بأبخس الأثمان، وأعاضتها بأخس الحظوظ وأدنى المطالب عن العالي من عُرف الجنان، فضلًا عما هو فوق ذلك من القرب من الرحمن، فسكنت إلى ذلك المحبوب الخسيس، الذي أَلَمَّها به أضعاف لذتها، ونيلُه والوصولُ إليه أكبرُ أسبابِ مَضَرَّتِها، فما أوشكه حبيبًا يستحيل عدوًّا عن قريب، ويتبرأ منه محبُّه لو أمكنه حتى كأنه لم يكن له بحبيب، وإنْ تمتَّع به في هذه الدار فسوف يجد به أعظمَ الألم بعد حين، لا سيما إذا صار الأَخْلَاءُ يومئذ بعضهم لبعض عدوًّا إلا المتقين.

فيا حسرة المحبِّ الذي باع نفسه لغير الحبيب الأولِ بثمنٍ بخس، وشهوةٍ عاجلة، ذهب لذتها، وبقيت تبعثُها، وانقضت منفعتها، وبقيت مضرَّتُها، فذهبت الشهوة، وبقيت الشُّقوة، وزالت النُّشوة، وبقيت الحسرة، فوارحمتاه لَصَبَّ جمع له بين الحسرتين، حسرة فوت المحبوب الأعلى والنعيم المقيم،

(١) ينظر: الاستقامة، لابن تيمية، (م ١ / ص ٤٥٩).

وحسرة ما يقاسيه من النَّصَب في العذاب الأليم»^(١).

والمفسد الرابع من مفسدات القلوب في هذا البيت الوسوسة، وهي في

اللغة: من وسوس يوسوس، والوسوسة صوتٌ خفيٌّ غيرٌ رفيع، يقال لصوت الحُلِيِّ: وسواس، وإغواء الشيطان: وسواس، يقال: وسوست إليه نفسه وسوسةً ووسواساً^(٢). وفي الاصطلاح: ما يلقيه الشيطان في القلب^(٣)، وقيل: ما يقع في النفس من عمل الشر وما لا خير فيه^(٤).

والوساوس نوعان: «إمَّا مِنْ قَبِيلِ الْحُبِّ مِنْ أَنْ يَخْطِرَ بِالْقَلْبِ مَا قَدْ كَانَ، أَوْ مِنْ قَبِيلِ الطَّلَبِ، وَهُوَ أَنْ يَخْطِرَ فِي الْقَلْبِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَمِنْ الْوَسَاوِسِ مَا يَكُونُ مِنْ خَوَاطِرِ الْكُفْرِ وَالنَّفَاقِ، فَيَتَأَلَّمُ لَهَا قَلْبُ الْمُؤْمِنِ تَأَلُّمًا شَدِيدًا»^(٥). والموسوس أيضًا نوعان «إِنْسٌ وَجَنٌّ، فَإِنَّ الْوَسُوسَةَ هِيَ الْإِلْقَاءُ الْخَفِيُّ فِي الْقَلْبِ، وَهَذَا مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ، وَإِنْ كَانَ إِلْقَاءُ الْإِنْسِيِّ وَسُوسَةً إِنَّمَا هِيَ بِوَاسِطَةِ الْأُذُنِ، وَالْجَنِّيُّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تِلْكَ الْوَاسِطَةِ؛ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي ابْنِ آدَمَ، وَيَجْرِي مِنْهُ مَجْرَى الدَّمِ»^(٦).

ولا يزال الشيطان بالمرء يوسوس له حتى تصير نفسه حقيرةً صغيرةً مستسلمةً لوسواسه، وهذا ما أشار إليه الناظم بالوسوسة المصغرة. والوسواس شر عظيم أمرنا بالاستعاذة منه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٢١).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٠٧٩)، (وس وس)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٦ / ص ٤٨٣٠)، (وس وس).

(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي، (م ٥ / ص ٢٠٨).

(٤) ينظر: الكليات، للكفوي، (ص ٩٤١).

(٥) ينظر: الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، (م ٢ / ص ٢٢٣).

(٦) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٦٦).



الْخَنَاسِ ﴿٤﴾ [الناس: ٤]، ولم يزل إبليسُ يوسوس لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى أخرج من الجنة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ ﴿١٢﴾﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣﴾﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١]، وكلما عَظُمَ الْإِيمَانُ فِي الْإِنْسَانِ كَانَ عُرْضَةً لَوْسُوسَةِ الشَّيْطَانِ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْوَسْوسَةِ؛ قَالَ: تِلْكَ مَخْضُ الْإِيمَانِ»^(١).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مَبِينًا خَطَرَ الْوَسْوسَةِ عَلَى الْقَلْبِ: «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ: يَعْمُ كُلُّ شَرِّهِ، وَوَصْفُهُ بِأَعْظَمِ صِفَاتِهِ وَأَشَدِّهَا شَرًّا، وَأَقْوَاهَا تَأْثِيرًا وَأَعْمَاهَا فُسَادًا، وَهِيَ الْوَسْوسَةُ الَّتِي هِيَ مَبَادِيءُ الْإِرَادَةِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ يَكُونُ فَارِغًا مِنَ الشَّرِّ وَالْمَعْصِيَةِ فَيُوسِسُ إِلَيْهِ، وَيَخْطُرُ الذَّنْبُ بِبَالِهِ، فَيَصُورُهُ لِنَفْسِهِ وَيَمْنِيهِ، وَيُشْهِئُهُ، فَيَصِيرُ شَهْوَةً، وَيُزَيِّنُهَا لَهُ وَيَحْسِنُهَا، وَيَخِيلُهَا لَهُ فِي خِيَالِهِ، حَتَّى تَمِيلَ نَفْسُهُ إِلَيْهِ فَيَصِيرُ إِرَادَةً، ثُمَّ لَا يَزَالُ يُمَثِّلُ لَهُ وَيَخِيلُ وَيَمْنِي وَيُشْهِئُ وَيَنْسِي عِلْمَهُ بِضَرَرِهَا، وَيَطْوِي عَنْهُ سُوءَ عَاقِبَتِهَا، فَيَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَطَالَعَتِهِ، فَلَا يَرَى إِلَّا صُورَةَ الْمَعْصِيَةِ وَالتَّذَادَ بِهَا فَقَطْ، وَيَنْسِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَتَصِيرُ الْإِرَادَةُ عَزِيمَةً جَازِمَةً، فَيَشْتَدُّ الْحَرَصُ عَلَيْهَا مِنَ الْقَلْبِ»^(٢)، وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَأَصْلُ كُلِّ مَعْصِيَةٍ وَبَلَاءٍ إِنَّمَا هُوَ الْوَسْوسَةُ»^(٣).



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، برقم (١٣٣).

(٢) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ٢٧٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ٢٥٨).

وَالْعُجْبُ وَالرِّيَاءُ ثُمَّ التَّزَهُُّ إِنَّ مَسَّتِ الْقَلْبَ أَتَاهُ التَّلَفُ

يذكر الناظم في هذا البيت ما تَبَقَّى من مفسدات القلوب:

وأولها العُجب، وهو في اللغة: الزَّهْوُ والكِبَرُ، ورجلٌ معجبٌ: مَزْهُوٌّ بما يكون منه حَسَنًا أو قَبِيحًا، وقد أُعْجِبَ فلانٌ بنفسه، إذا تَرَفَّعَ وتَكَبَّرَ^(١)، والعجب اصطلاحًا: هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبةً لا يكون مستحقًا لها^(٢).

وقد حذر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من العجب، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [القمان: ١٨]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «مختال معجب بنفسه»^(٣)، كما بيَّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّ الإعجاب بالكثرة أحد أسباب الهزيمة يوم حُنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخِيَلِ خُسْفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلَجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٤)، قال أبو العباس القرطبي: «يفيد هذا الحديث ترك الأمن من تعجيل المؤاخذه بالذنوب، وأنَّ عُجْبَ المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرامٌ

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٧٤٣)، (ع ج ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٥٨٢)، (ع ج ب)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٣ / ص ٣١٨)، (ع ج ب).
(٢) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ١٤٧).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٦ / ص ٣٣٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان، برقم (٣٤٨٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبخر في المشي مع إعجابه بشيابه، برقم (٢٠٨٨).



وكبيرة»^(١)، وفي الحديث أيضًا: «وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشَحُّ مُطَاعٍ، وَهَوَى مُتَّبَعٍ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»^(٢)، وَعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْذِبُونَ لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ الْعُجْبُ»^(٣)، قَالَ الْمَنَاوِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَأَنَّ الْعَاصِي يَعْتَرِفُ بِنَقْصِهِ، فَتُرْجَى لَهُ التَّوْبَةُ، وَالْمَعْجَبُ مَغْرُورٌ بِعَمَلِهِ، فَتَوْبَتُهُ بَعِيدَةٌ»^(٤).

قال مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعَمَلِهِ»^(٥)، وَقَالَ عَلِيٌّ بْنُ ثَابِتٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الْمَالُ آفَتُهُ التَّبْذِيرُ وَالنَّهْبُ، وَالْعِلْمُ آفَتُهُ الْإِعْجَابُ وَالْغَضَبُ»^(٦)، وَعَنْ خَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ لَجُوجًا، مُمَارِيًا، مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ، فَقَدْ تَمَّتْ خَسَارَتُهُ»^(٧)، فَالْعُجْبُ مَفْسِدٌ لِلْقَلْبِ وَالْعَمَلِ، قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا شَيْءَ أَفْسَدَ لِلْأَعْمَالِ مِنَ الْعُجْبِ وَرُؤْيَةِ النَّفْسِ»^(٨).

وما أجمل وأدق ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حول ما يَحُولُ دون وصول العمل من القلب إلى الرب؛ قوله: «فَيَبِينُ الْعَمَلُ وَيَبِينُ الْقَلْبُ مَسَافَةً، وَفِي تِلْكَ الْمَسَافَةِ قُطَاعٌ تَمْنَعُ وَصُولَ الْعَمَلِ إِلَى الْقَلْبِ، فَيَكُونُ الرَّجُلُ كَثِيرَ الْعَمَلِ، وَمَا

(١) ينظر: طرح الشريب، للعراقي، (م ٨ / ص ١٦٩).

(٢) أخرجه البزار في مسنده، مسند أنس بن مالك، البصريون عن أنس، زياد النميري عنه، برقم (٦٤٩١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (٥٣).

(٣) أخرجه البزار في مسنده، مسند أنس بن مالك، البصريون عن أنس، من حديث ثابت عن أنس، برقم (٦٩٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (٢٩٢١).

(٤) فيض القدير، للمناوي، (م ٥ / ص ٤٢٢).

(٥) ينظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (م ١ / ص ١٤٣).

(٦) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ١٤٣).

(٧) ينظر: مساوئ الأخلاق، للخرائطي، (ص ٥٦٧).

(٨) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٥٢).

وَصَلَ مِنْهُ إِلَى قَلْبِهِ مَحَبَّةٌ، وَلَا خَوْفٌ، وَلَا رَجَاءٌ، وَلَا زُهْدٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَا رَغْبَةٌ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا نُورٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا قُوَّةٌ فِي أَمْرِهِ، فَلَوْ وَصَلَ أَثَرُ الْأَعْمَالِ إِلَى قَلْبِهِ لَأَسْتَتَارَ وَأَشْرَقَ، وَرَأَى الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَحْوَالِ.

ثُمَّ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الرَّبِّ مَسَافَةٌ، وَعَلَيْهَا قُطَاعٌ تَمْنَعُ وَصُولَ الْعَمَلِ إِلَيْهِ، مِنْ كِبَرٍ، وَإِعْجَابٍ، وَإِذْلَالٍ، وَرُؤْيَا الْعَمَلِ، وَنَسْيَانِ الْمِنَّةِ، وَعِلَلٍ خَفِيَّةٍ لَوْ اسْتَقْصَى فِي طَلَبِهَا لَرَأَى الْعَجَبَ^(١).

والمفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيت الرياء، وهو في اللغة:

من الرؤية والنظر والإبصار، يقال: فعله رياءً؛ أي: ليَراه الناس، وقريب منه السُّمعة: مشتقة من السماع والإسماع، وهي ما يُسْمَعُ به من صيت، يقال: فعل ذلك رياءً وسُمعةً؛ أي ليَراه الناس ويسمعه^(٢). والرياء في الاصطلاح: إظهار العبادة بقصد رؤية الناس ليُحْمَدَ عليها^(٣). والسُّمعة في الاصطلاح: إظهار العبادة بقصد سماع الناس ليُحْمَدَ عليها^(٤)، والفرق بين الرياء والسُّمعة: أَنَّ الرياءَ يتعلَّقُ بحاسة البصر، والسُّمعةُ تتعلَّقُ بحاسة السمع^(٥)، وقد جُمعَا في الحديث، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَمَعَ سَمَعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ^(٦).

(١) ينظر: مدراج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٣٨)، (س م ع).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤٣٦)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٤ / ص ٢٩٦)، (س م ع)، والصحاح، للجوهري، (م ٦ / ص ٢٣٤٨)، (س م ع).

(٣) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، (م ١١ / ص ٣٤٤).

(٤) ينظر: الدين الخالص، للقنوجي، (م ٢ / ص ٣٧٩).

(٥) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، (م ١١ / ص ٣٣٦).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الرياء والسُّمعة، برقم (٦٤٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٦).



والرياء من الشرك الأصغر الذي خاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته منه، فَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ»، قَالُوا: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ»^(١). قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة، فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، والمخففة: الشرك الأصغر: كَيْسِيرِ الرِّيَاءِ، والتصنُّعِ للمخلوق»^(٢).

ويدخل في الرياء النفاق الاعتقادي، وهو إظهار الإيمان، وإبطان الكفر، ومنهم المنافقون الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

والرياء إن لم يدفعه الإنسان أفسد عمله، وقد أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عمن قصد بعمله الدنيا بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾^(٣) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٤) [هود: ١٥، ١٦]، وأهل الرياء هم أول مَنْ تَسَعَّرَ بِهِمُ النَّارُ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأْتِي بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، حديث محمود بن لبيد رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٤٠٦٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٠).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٩).

أَمَرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتَهُ، وَقَرَأْتَ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ، هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

والرياء له صورٌ كثيرةٌ تفسد القلوب يقول يوسف بن الحسين: «أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لونٍ آخر»^(٢).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ متحدثاً عن أمراض القلوب -وقد سبق معنا:-
 «ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْزِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ تَرَامِيًا بِهِ إِلَى التَّلَفِ وَلَا بُدَّ، وَهُمَا: الرِّيَاءُ، وَالْكِبَرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَدَوَاءُ الْكِبَرِ بِ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدْفَعُ الرِّيَاءَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدْفَعُ الْكِبَرِيَاءَ»^(٣). ويقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «سلامة الصدور من الرياء والغُلِّ والحسد والغشِّ والحقد، وتطهيرها من ذلك أفضل؛ من التطوع بأعمال

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، برقم (١٩٠٥).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩٦).

(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٨٧).



الجوارح، وكثرة أعمال الجوارح مع تدنيس القلب بشيء من هذه الأوضار لا يزكو، وهو كزراع في أرض كثيرة الآفات لا يكاد يسلم ما ينبت فيها»^(١).

والمفسد الثالث من مفسدات القلوب في هذا البيت الترف، وهو في اللغة: من التنعيم والترّف^(٢)، والقصد هنا التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مُترف^(٣). واصطلاحاً: مجاوزة حد الاعتدال في النعمة، والإغراق في الملذات.

وقد ذمَّ الله الترف في كتابه، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «اتبعوا ما أنظروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله، وتجبَّروا وصدُّوا عن سبيله، وذلك أنَّ المترَف في كلام العرب هو: المنعم قد غُذي باللذات»^(٤)، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (١١) فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَئِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٣]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾: هذا تهكم بهم قدرًا، أي قيل لهم قدرًا: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه، من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن»^(٥).

بل ربما جرَّ أهل الترف الأذى والهلاك لغيرهم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا

(١) ينظر: مجموع الرسائل، شرح حديث شداد، لابن رجب، (م ١ / ص ٣٨٤)

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٧٠)، (ت ر ف).

(٣) ينظر: المفردات، للراغب، (ص ١٦٦).

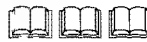
(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م ١٥ / ص ٥٢٩).

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٥ / ص ٣٣٥).

تَذْمِيرًا ﴿[الإسراء: ١٦]، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى أصحابه عن الإرفاء، ويخاف عليهم زهرة الدنيا وملاذتها، لما لذلك من آثار في القلوب، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: «إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا»^(١)، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحَلَ إِلَى فَصَالَةَ بْنِ عُيَيْدٍ وَهُوَ بِمَصْرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَتِكَ زَائِرًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ أَنَا وَأَنْتَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: وَمَا لِي أَرَاكَ شَعْبًا وَأَنْتَ أَمِيرُ الْأَرْضِ؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْهَانَا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْإِرْفَاءِ. قَالَ: فَمَا لِي لَا أَرَى عَلَيْكَ حِذَاءً؟ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَفِيَ أَحْيَانًا»^(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا، قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا، فاتتها موائد الآخرة»^(٣).

وجاء الشطر الثاني من هذا البيت للإشارة إلى أن هذه المفسدات إذا خالطت القلوب كان سببًا لتلفها وعطبها، وهكذا سائر المفسدات فإنها تهلِك القلوب وتميتها.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى، برقم (١٤٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، برقم (١٠٥٢).
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، واللفظ له، كتاب الترجل، برقم (٤١٦٠)، والنسائي في سننه، كتاب الزينة، باب الترجل غبًا، برقم (٥٠٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٠٢).

(٣) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٩٨).



فاحرص على لزوميه درب الهدى وداويه كي لا يميل للردى

ختم الناظم المفسدات بهذا البيت الذي يحوي على وصية عظيمة، وهي الحرص على إلزام القلوب درب الهدى، بالحفاظ عليه من المفسدات والمقسيات والأمراض، وهي من الأمور التي تحتاج إلى مجاهدة، فإن القلب يتقلب، ويتأثر بالمؤثرات والعوارض والفتن، والتوفيق للثبات والمحافظة على القلب نعمة عظيمة. ثم أشار إلى مداواة القلب، فإن القلب قد يمرض ويضعف ويقسو، والكيس من يُبادر للعلاج والدواء قبل حلول العطب، والسقوط في مهاوي الردى، والعجب ممن يبادر ويعالج الأمراض البدنية، ويغفل عن الأمراض القلبية، ومن البخل أن تمرض بأشد الأمراض ولا تتداوى، وما أخطر تأخير العلاج عن وقته، لا سيما في باب أمراض القلوب، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مُحَذِّراً من آفتين: «حذارِ حذارٍ من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: ردّ الحق لمخالفته هواك، فإنك تعاقب بتقليب القلب وردّ ما يردّ عليك من الحق رأساً ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك. قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فعاقبهم على ردّ الحق أول مرة بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، فإنك إن تهاونت به ثبّطك الله وأقعذك عن مراضيه وأوامره عقوبة لك؛ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]،



فَمَنْ سَلِمَ مِنْ هَاتَيْنِ الْآفَتَيْنِ وَالْبَلِيَّتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ فَلَيْهِنَّ السَّلَامَةُ»^(١).

ويجدر بالعاقل أن يفتش في قلبه بين الحين والآخر، ويميز الأعمال، وينظر في صدقها، ويتدارك العلل الخفية وحظوظ النفس، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها»^(٢).



(١) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٨٠).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٣٩).

الخاتمة

حافظُ على جواهرِ الفؤادِ زادك يومَ الحشرِ والمعادِ

شرع الناظم في ذكر خاتمة النظم، وجاء البيت الأول من الخاتمة وصيةً بالمحافظة على جواهر الفؤاد، أي: المحافظة على الأعمال القلبية، والحرص عليها، فهي الجوهر الحقيقي، والدرُّ الأصلي. وقد بيّن في الشطر الثاني الثمرة والفائدة من المحافظة على أعمال القلوب، فهي الزاد الحقيقي يوم القيامة، قال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وسلامة القلوب تكون بتحقيق الأعمال القلبية والحرص عليها، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، فأشار جلّ في علاه إلى أن خير الزاد التقوى، وهو من أعمال القلوب.



ثم استعن عليه بالدعاء ورددُنْ يا مُجْزِلَ العطاء
يا سابِغَ الخيراتِ للعبيدِ ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَى التَّوْحِيدِ

اشتمل البيت الثاني والثالث من الخاتمة على اللجوء والاستعانة بالله تعالى، والثناء عليه، وطلب الدعاء منه، وما أحوج العبد الفقير لسؤال الرب الكريم! فيطلب الناظم من ربه، مرددًا كلمات الثناء بين يدي الدعاء، فهو الذي يُجزل العطيات، ويُسبغ الخيرات، ويُعطي عباده من المكرمات، يسأله ثبات القلب على التوحيد، وهو من أجل الغايات، وأسمى الأمنيات، وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه ثبات القلب، عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِضْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»^(١).

وأجل الطاعات توحيد الله، ومن مات على التوحيد ظفر بالثبات في القبر وما بعده، فعن البراء بن عازب أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ: يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾» [إبراهيم: ٢٧]»^(٢)، ولذلك خاف السلف من الخواتيم، ومن تغير القلوب وموتها على غير التوحيد، وهذا السؤال والدعاء مناسب لموضوع النظم الذي يتعلق بالقلوب، وأجل ما يكون في القلوب إفراؤ الله بالتوحيد، وطهارتها من التنديد.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، برقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب تفسير القرآن، سورة إبراهيم، باب يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، برقم (٤٦٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، برقم (٢٨٧١).



تَمَّتْ هُنا الأَرْجوزَةُ البَهيَّةُ عَنوانُها «المنظومةُ القَليَّةُ»

أشار الناظم إلى تمام هذه المنظومة التعليمية البهيّة التي حوت مهمّات المسائل القليّة، من التعريفات والتقسيمات، والفوائد والثمرات، والأنواع والمفسّسات. ولما حوته الأرجوزة من مسائل هذا العلم ومباحثه عَنَوَنَها الناظم بـ «المنظومة القليّة».



بِحَمْدِ رَبِّنَا الْعَلِيِّ نُظِمَتْ وَبِالصَّلَاةِ لِلْأَمِينِ خُتِمَتْ

ختم الناظم نظمه بالحمد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحمد لغة: من حَمَدَ يَحْمَدُ بمعنى الثناء، وهو نقيض الذم، يقال: حَمَدْتَ فلانًا أَحْمَدَهُ، ورجلٌ مَحْمُودٌ ومَحْمَدٌ، إذا كثرت خصائله المحمودَةُ غيرُ المذمومة^(١). واصطلاحًا: إخبارٌ عن محاسن المحمود مع جبه وإجلاله وتعظيمه، وإذا لم يَقْتَرِنْ بمحبةٍ وتعظيمٍ صار مدحًا^(٢). ويكون الحمد لله بالثناء على الله بصفات كماله، ونعوت جماله، تعظيمًا وإجلالًا.

والعَلِيُّ اسم من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سَمَّى اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وله صفةُ العلوِّ المطلقِ من جميع الوجوه ذاتًا وقدرًا وقهرًا.

والصلاة في اللغة: الدعاء^(٣)، والصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الله الثناء، ومن الملائكة والناس الدعاء، وسؤال الله أَنْ يَشْنِي عَلَيْهِ وَيَزِيدَهُ تَكْرِيمًا، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «صَلَاةُ اللَّهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ»^(٤).

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٨١)، (ح م د)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٣ / ص ١٥٥)، (ح م د)، والصحاح، للجوهري، (م ٢ / ص ٤٦٦)، (ح م د).

(٢) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩٣).

(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٦٧٢)، (ص ل و).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، تعليقًا، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، باب قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، (م ٦ / ص ١٢٠).



والأمين صفةٌ للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد عُرف بالصدق والأمانة حتى في الجاهلية، وفي قصة بناء الكعبة في الجاهلية: «فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: أَتَاكُمْ الْأَمِينُ»^(١).

وختامًا أسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يتقبَّل مني هذا النظم والشرح والتعليقات، وأن يجعله في موازين الحسنات، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الفضل والجود والكرم والأجر والهبات، وجاء كل ذلك مع قلة البضاعة، ولكنه جهد المقلِّ المؤمل في الخيرات.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ.



(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين رضي الله عنهم، حديث السائب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، برقم (١٥٧٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح السيرة النبوية، (ص ٤٥).

فهرس الموضوعات

٥.....	مقدمة الشارح
٩.....	نص المنظومة
١٠.....	المنظومة القلبية
١٣.....	شرح المنظومة
١٥.....	مقدمة المنظومة
٢٢.....	ماهية القلب وأهميته
٣٠.....	تفاضل أعمال القلوب وتلازمها وعلاقتها بأعمال الجوارح
٣٩.....	أقسام القلوب
٤٤.....	أعمال القلوب
١٢٠.....	مفسدات القلوب
١٦٦.....	الخاتمة
١٧١.....	فهرس الموضوعات

رَفَعُ

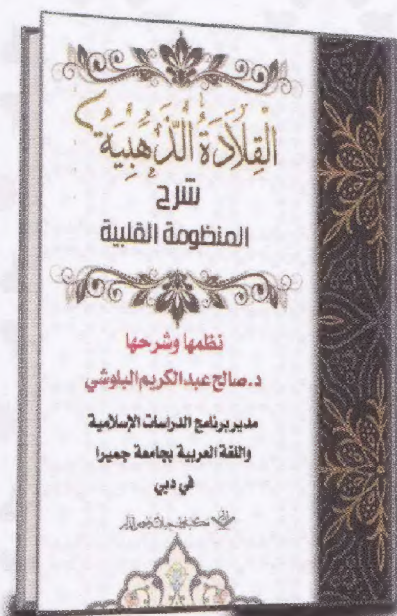
عبد الرحمن النجدي
السنة النبوية الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



من إصداراتنا

مكتبة فضيلة دُروس الدائم

